سيرة علي من كلام علي
عرض موجز من سيرة
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام
من خلال نهج البلاغة

الدكتور محمد مهدي جعفري

جامعة شيراز

عرض موجز من سيرة الامام علـيّ (ع) بالاعتماد على كلامه وخطبه في نهج البلاغة. وما ورد على ألسنة العلماء والفقهاء قديمًا.

اسمه علـيّ، وحيدرة وصف له لغلظ عنقه وذراعيه، وكنيته أبو تراب وأبو الحسنين، والدته فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف، وضعته في الكعبة، وحضنه الرسول (ص) صغيراً، وكان أوّل من صدّقه، وصلّى معه وهو ابن إحدى عشرة سنة، وآخاه الرسول (ص) بعد ثمانية أشهر من الهجرة، وكان صاحب اللّواء ببدر، وثبت مع رسول اللّه (ص) يوم أحد حين انكشف الناس، وبعثه النبي (ص) في وجوه كثيرة، وصعد علـيّ (ع) يوم الفتـح على منكبي رسـول اللّه (ص) فقـذف الأصنـام وكسّـرها، وولّاه بعده في غدير خـمّ، وقبض الرسول (ص) ورأسه على صـدر علـيّ (ع) ، ونزلت آيات كثيرة في شـأنه. حمله الناس إلى الخلافة بعد مقتل عثمان، وتمرّد عليه معاوية وخاض وقعتي الجمل وصفّين، حتى كانت مهزلة التحكيم وظهور الحرورية، ومقتل أمير المؤمنين علـيّ بن أبي طالب (ع) على يد ابن ملجـم.

هو علي بن أبي طالب بن عبـدالمـطلب بن هاشم بن عبدمناف. واسم أبي طالب: عبدمناف، وهو أخو عبداللّه والد رسول اللّه(ص) لأبيه وأمّه، وأمّهما فاطمة بنت عمرو بن عايذ.

واختلف العلماء في تسميته بعلي(ع)، فقال مجاهد: هو اسم سمّته به أمّه عند ولادته، وقال عطاء: إنّما سمّته أمّه «حيدرة» بدليل قوله يوم خيبر: «انا الّذي سمّتني أمّي حيدرة» فلمّا عَلَى على كتفي الرسول(ص) وكسر الأصنام سمّي عليّاً، من العلو والرفعة والشرف، وقول مجاهد أظهر لأنه ثبت المستفيض به، ولا يمنعها من تسميتها عليّاً أن تسمّيه حيدرة، لأنّ حيدرة اسم من أسـامي الأسـد لغلظ عنقـه وذراعيه، وكذلك كان أمير المؤمنين(ع)، فيكون علي اسمه الأصلّي، وحيدرة وصفاً له.

فأما كنيته فأبو الحسن وأبو تراب، والنبيّ(ص) كنّاه أبا تراب، والحديث في المسند والصحيحين.

ذكر الحافظ من مسنده إنّه كان آدم شديد الأدمة، عظيم العينـين غليظ السـاعـدين؛ أقـرب إلى القصر من الطول، عريض اللحية، لم يصفـه أحـد بالخضـاب سوى سواد بن

حنظلة، والصحيح انه لم يخضب وروي أنه كان يصفر لحيته بالحناء ثم ترك.

ووالدته: فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبدمناف. أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت بها سنة أربع من الهجرة، وشهد رسول اللّه(ص) جنازتها، وصلّى عليها، ودعى لها، ودفع لها قميصه فألبسها أياه عند تكفينها.

وذكر أحمد بن الحسين البيهقي بأسناده الى أنس أنّ رسول اللّه(ص) نزل في حفرتها، وقال أهل السير: هي أول هاشمية ولدت خليفة هاشمياً. وروي أن فاطمة بنت أسد كانت تطوف بالبيت وهي حامل بعليّ(ع)، فضربها الطّلق ففتح لها باب الكعبة فدخلت فوضعته فيها.

قلت: وقد أخرج لنا أبو نعيم الحافظ حديثاً طويلاً في فضلها، إلّا إنهم قالوا في أسناده روح بن صلاح، ضعّفه ابن علي، فلذلك لم نذكره[1].

وقال البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر، النسّابة والمؤرّخ الشهير (فـ ٢٧٩) مستنداً:

«قبسات من ترجمة أمير المؤمنين وغرر مناقبه عليه السَّلام»

وأمّا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السَّلام فكان يكنى «أبا الحَسَنَيْن». ويقال أنّ أمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف. لقبته وهو صغير: «حيدرة». وكناه رسول اللّه(ص): «أبا تراب» وكان يقول: هي أحب كنيتي إليّ. وقد اختلفوا في سبب تكنيته بأبي تراب، فقال بعضهم[2]: مرّ رسول اللّه(ص) في غزاة، وكان هو وعمّار بن ياسر نائمان على الأرض، فجاء ليوقظهما، فوجد عليّاً قد تمرّغ في البوغاء[3]، فقال له: «إجلس يا أبا تراب». وقالواوجهين آخرين[4].

ولد عليه السلام بمكّة في البيت الحرام لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة[5].

قالوا وكان أبو طالب قد أقلّ وأقتر، فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، عليّاً ليخفّف عنه مؤونته فنشأ عنده[6].

وقال عليّ عليه السَّلام:

«أنا وضعتُ في الصِّغر بكلاكل العَرب، وَكسرتُ نواجمَ قرون ربيعة ومُضر. وقد علمتم موضعي من رسول اللّه ـ صَلّى اللّه عليه وآله ـ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في حِجـــرِه، وأنـا ولـدٌ يضُمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسُّني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغُ الشيء ثُم يُلقمنيه، وما وجد لي كذبةً في قولٍ، ولا خطلةً في فِعل.»[7].

عليّ في عصر الرَّسُول(ص)

«وصلى مع رسول اللّه(ص) وهو ابن إحدى عشرة سنة، وذلك هو الثبت. ويقال: ابن عشرة، ويقال: ابن تسع، ويقال: ابن سبع»[8].

«ولقد كان يجاورُ في كل سنةٍ بحراء فأراه ولا يراهُ غيري. ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام غير رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشمُّ ريح النبوة»[9].

«اللّهم إني أول من أناب، وسمع وأجاب، لم يسبقني إلّا رسول اللّه ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ بالصَّلاة»[10].

وهو أول من صدّق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله:

«واللّه لأنا أولُ مَن صَدَّقهُ»[11].

«ولقد بلغني أنكم تقولون: عليٌ يكذبُ، قاتلكم اللّهُ تعالى! فعلى من أكذبُ؟ أعلى اللّه؟ فأنا أولُ من آمن به! أم على نبيه؟ فأنا أوَّلُ مَن صَدقهُ»[12].

فقال احمد في «الفضائل»: أخبرنا يحيى بن أبي بكر وابن آدم، قالا: حدثنا اسرائيل عن أبي إسحاق، عن حبشي بن جنادة، عن السلوي ـ وكان قد شهد حجّة الوداع ـ قال: سمعت رسول اللّه(ص) يقول في ذلك اليوم: «علي مِني وأنا منهُ، ولا يقضي ديني سواه»؛ وقيل قاله يوم نزل عليه و«أنذر عشيرتك الأقربين»[13].

وذكر أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره عن ابن عبّاس قال: لّما أراد رسول اللّه(ص) أن يهاجر إلى المدينة خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده، وأمره تلك الليلة أن ينام على فراشه، وقال: إتشح ببردي الحضرمي الأخضر فانّه لا يخلص إليك منهم أحد ولايصيبونك بمكروه، والقوم قد أحاطوا بالدّار... ثُمّ توجّه رسول اللّه(ص) إلى المدينة فأنزل اللّه تعالى في شأن علي(ع): ﴿ومن الناس من يشري نفسه آبتغاء مرضات اللّه، واللّه رؤوفٌ بالعباد﴾[14].

قال ابن عبّاس: أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة اللّه

علي بن أبي طالب وقال ابن عبّاس: أنشدني أمير المؤمنين شعراً قاله في تلك اللّيلة:

وقيتُ بنفسي خير من وطئ الحصا
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
رسول الإله خاف أن يمكروا به
فنجاه ذو الطول العلي من المكر
وبات رسول اللّه في الغار آمناً
موقّيً وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت أراعيهم وما يثبتونني
وقد وطنت نفسي على القتل والأسر[١٥]

وقال عليه السّلام في كلام اقتصّ ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي، صلّى اللّه عليه وآله، ثمّ لحاقه به:

«فجعلت أتبع مأخَذَ رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله، فأطأُ ذكرهُ، حتى انتهيتُ إلى العرج»[١٦].

وآخى رسول اللّه(ص)، ثمانية أشهر بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار في المدينة، وأخذ يد علّي بن أبي طالب وقال(ص): «هذا أخي»[١٧].

«وكان [أمير المؤمنين علّي بن أبي طالب(ع)] صاحب اللواء ببدر، وكان معلماً بصوفة بيضاء، وثبت مع رسول اللّه(ص) يوم أُحُد حين انكشف النّاس... وبعثه رسول اللّه في وجوه كثيرة »[١٨].

وكتب في كتاب إلى معاوية:

«فأنا أبو حَسَنٍ قَاتلُ جدِّكَ وأخيك وخالك شدخاً يوم بدرٍ، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقىٰ عدوي...»[١٩].

وقال أيضاً:

«إن اللّه بعث مُحمداً، صلّى اللّه عليه وآله، وليس أحدٌ من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعي نبوةً، فساق الناس حتى بَوّأهم محلّتهُم، وبلغهم منجاتهم، فاستقامت قناتهم، واطمأنت صفاتهم. أما واللّه إن كنتُ لَفِي سَاقتها حتى تولت بحذافيرها: ما عجزتُ ولا جبنتُ ، وإن مسيري هذا لمثلها؛ فَلأنقبنَّ الباطل حتى يخرج الحق مِن جنبه.

مالي ولقريش! واللّه لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلنهم مفتونين، وإني لصاحبهُم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم!..»[٢٠].

«حدثني شجاع بن مخلّد، ويوسف بن موسى القطان، قالا: حدثنا جرير بن عبدالحميد الضبي، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رض ـ قال: قال رسول اللّه(ص) يوم خيبر: لأُعطينّ الراية غداً رجُلاً يحبُّ اللّه ورسولهُ ويحبُّهُ اللّهُ ورسولهُ. فدعا عليّاً فبعثه وقال: قاتل حتى يفتح اللّهُ عليك ولا تلتفت »[٢١].

«وقتل علّي عليه السّلام في يوم الأحزاب عمرو بن عبدود ونوفل بن عبداللّه، وقال جابر بن عبداللّه الانصاري: فما شبهت قتل علّي عمرواً إلّا بما قصّ اللّه تعالى من قصّة داوود(ع) وجالوت حيث يقول جلّ شأنه: «فهزموهم بإذن اللّه وقتل داوود جالوت»[٢٢]. وكان قتله عمرواً ونوفل سبب هزيمة المشركين»[٢٣].

وقال رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله: «لضربةُ علي خيرٌ ـ أو أفضلُ ـ مِن عبادة الثقلين». وروى الحاكم في المستدرك: قال: «لمبارزةُ علي أفضلُ من أعمال أُمتي إلى يوم القيامة»[٢٤].

وصعد علّي، يوم الفتح على منكبي رسول اللّه فقذف الأصنام وكسّرها، وقال ابن أبي الحديد في إحدى «قصائد السبع العلويات»:

رقيت بأسمى غارب أحدقت به
ملائك يتلون الكتاب المُسطرا
بغارب خير المرسلين وأشرف الأ
نام وأزكى ناعلٍ وطىء الثرى
فسبح جبريلُ وقدَّس هيبَةً
وهلل إسرافيل رُعباً وكبَّراً
فيا رتبةً لو شئتَ أن تلمس السُّها
بها لم يكُن مارُمْتَهُ متعذراً
ويا قدميه! ايَّ قُدسٍ وطئتما
وأيَّ مقامٍ قُمتُما فيه أنوراً[٢٥]

أنفذ رسول اللّه(ص)، بعد حُنين، عليّاً(ع) [إلى الطائف] في خيل وأمره أن يطأ ما وجد ويكسر كل صنم وجده.

فخرج حتى لقيته خيل خثعم في جمع كثير. فبرز لهم رجل من القوم يقال له «شهاب» في غبش الصبح! فقال هل من مبارز؟... فبرز إليه أمير المؤمنين(ع) ثمّ ضربه فقتله ومضى في تلك الخيل حتى كسر الاصنام وعاد إلى رسول اللّه(ص) وهو محاصر اهل الطايف. فلما رآه النبي(ص) كبّر للفتح وأخذ

بيده؛ فخلا به وناجاه طويلاً...

ثم خرج من حصن الطايف نابغ بن غيلان بن معتب في خيل من ثقيف، فلقيه أمير المؤمنين عليه السلام ببطن وج، فقتله وانهزم المشركون ولحق القوم الرعب؛ فنزل منهم جماعة إلى النبي، صلّى اللّه عليه وآله، فأسلموا[٢٦].

وأنفذ رسول اللّه(ص) في ربيع الآخر من السنة التاسعة من الهجرة، عليّاً(ع) على مائة وخمسين من الأنصار لهدم بيت الصنم الفُلْس في قبيلة طيء، فهدم البيت والأصنام وأسر كثيراً منهم[٢٧].

قال أحمد في المسند: وقد تقدم اسناده، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن الحكم، عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص قال خلّف رسول اللّه(ص) عليّاً في غزوة تبوك في أهله، فقال: يا رسول اللّه(ص) تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من مُوسى، غير أنّه لا نبيّ من بعدي». أخرجاه في الصحيحين واتفقا عليه[٢٨].

وقال أمير المؤمنين، يصف موقفه في عصر الرسالة:

«ولقد كُنا مع رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله؛ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا؛ ما يزيدُنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومُضيّاً على اللّقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدوّ؛ ولقد كان الرَّجلُ منا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاوُل الفحلين، يتخالسان أنفسهما؛ أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرةً لنا من عدونا، ومرةً لعدونا منا، فلمّا رأى اللّه صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر؛ حتى استقر الإسلام مُلقياً جرانهُ، ومتبوّأً أوطانه»[٢٩].

حديث الولاية في غدير خمّ

حدثنا اسحاق، حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن علي بن زيد بن جدعان، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: لما أقبلنا مع النبي(ص) في حجته فكنّا بغدير خمّ نودي: أنّ الصّلاة جامعةً، وكسح للنبي(ص) تحت شجرتين، فأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: «أيّها النّاسُ اولست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى. قال: «أوليس أزواجي أمهاتهم؟» قالوا: بلى يا رسول اللّه. فقال: «هذا ولِيُّ من أنا مولاهُ؛ اللّهُم والِ من والاهُ وعادِ من عاداهُ»[٣٠].

قال أحمد بن حنبل في المسند: حدثنا ابن نمير، حدثنا عبدالملك بن أبي عبدالرحيم الكندي، عن زاذان قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول في الرحبة وهو ينشد الناس يقول: «أنشد اللّه رجلاً سمع رسول اللّه(ص) يقول في يوم غدير خم: «من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاهُ». فقام ثلاثة عشر رجلاً من الصحابة فشهدوا أنّهم سمعوا رسول اللّه(ص) يقول ذلك.

وأخرجه الترمذي أيضا في كتاب السنن، وقال حديث حسن، وزاد فيه: «أللّهُمَّ والِ من والاهُ وعادِ من عاداهُ وأدر الحق معهُ كيفما دارَ وحيثُ دار».

وأخرجه أحمد أيضاً في الفضائل فقال: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول اللّه(ص): «من كنت مولاه ـ أو وليّه ـ فعلي وليّه»[٣١].

وقد اكثرت الشعراء في يوم غدير خمّ، فقال حسّان بن ثابت:

ينـاديهـم يوم الـغـدير نبـيّهـم
بخـمّ فاسـمـع بالـرسـول مناديا
وقـال فمـن مولاكـم ووليّكـم؟
فقـالـوا ولم يبـدوا هنـاك الـتـعـاميا
إلهـك مولانـا وأنـت ولـيّنـا
ومـالـك منّـا في الـولاية عاصـيا
فقـال له قم يا عـلي فانّـني
رضـيتُـك من بعـدي إمـامـاً وهـاديا
فمـن كنـت مولاه فهـذا ولـيّه
فكـونـوا له أنـصـار صدق مواليا
هنـاك دعـا الـلّهـمَّ والِ ولـيّه
وكـن للّذي عادا عليّاً معـاديا

ويروى أن النبي(ص) لمّا سمعه ينشد هذه الأبيات، قال له: يا حسّان لا تزال مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا أو نافحت عنا بلسانك[٣٢].

كان الأمـر هكـذا حتّى قبض اللّه نبيّه(ص) ورأسه على صدر علي(ع). يقول أمير المؤمنين في موقفه من رسول اللّه و احقيّته بالأمر:

«ولقد علم المستحفظون من أصحاب مُحمدٍ، صلّى اللّه عليه

وآله، أني لم أرد على اللّه ولا على رسولهِ ساعةً قط. ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكصُ فيها الأبطالِ، وتتأخر فيها الأقدامُ، نجدةً أكرمني اللّهُ بها.

ولقد قبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، وإن رأسهُ لَعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفّي، فأمررتها على وجهي. ولقد وليتُ غسلهُ، صلّى اللّه عليه وآله، والملائكةُ أعواني، فضجت الدار والأفنيةُ، ملأ يهبطُ، وملأ يعرجُ، وما فارقت سمعي هينمةٌ منهم يصلون عليه حتى وارياه في ضريحه. فمن ذا أحقُّ به مني حيّاً وميتاً؟ فانفذوا على بصائركم، ولتصدق نياتكم في جهاد عدوِّكم. فوالذي لا إله إلّا هو! إني لعلى جادة الحق، وإنهم لعلى مزلة الباطل. أقولُ ما تسمعون، وأستغفر اللّه ليْ ولكم!»[٣٣].

فضائل علي(ع)

فضائله بحر لا ينفد وعدد لا يحصى، كما ألّفت كتب متعددة طوال القرون في فضائله واعترفوا أن لا يستطيعوا الاحاطة بجزء منها، كما ألّف الإمام أحمد بن حنبل كتاباً مستقلاً باسم «الفضائل» وذكر فضائله التي قالها رسول اللّه(ص)، أو قال في شأنه ربّه سبحانه وتعالى.

ولّما آلينا على أنفسنا الإيجاز في ذكر سيرته عليه السَّلام نأت باليسير من فضائله كما قالها بنفسه عليه السلام ونرجع إلى سير حياته الكريمة منذ رحلة الرسول(ص) إلى شهادته(ع).

الأوّل: الآيات التّي يقولها المفسّرون نزلت في شأن علي عليه السَّلام، أو برأينا، هُو من أبرز مصاديق الآية، ولا تنحصر الآية فيه، وتلك آيات اللّه الخالدة إلى يوم القيامة وعلي أوّل من كان المثل الأعلى لبيان الآية. وهي:

١ـ قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾[٣٤]؛

٢ـ قوله تعالى: ﴿**الّذين ينفقون أموالهم باللّيل والنّهار سرّاً وعلانية**﴾[٣٥]؛

٣ـ قوله تعالى: ﴿**فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**﴾[٣٦] أي آية المباهلة؛

٤ـ قوله تعالى: ﴿**إنما وليّكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا الّذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾[٣٧]؛

٥ـ قوله تعالى: ﴿**ياأيّها الّذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين**﴾[٣٨]،

٦ـ قوله تعالى: ﴿**أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه**﴾[٣٩]؛

٧ـ قوله تعالى: ﴿**إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرّحمان ودّاً**﴾[٤٠]؛

٨ ـ قوله تعالى: ﴿**فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر**﴾[٤١]؛

٩ـ قوله تعالى: ﴿**إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾[٤٢]؛

١٠ـ قوله تعالى: ﴿**وقفوهم أنّهم مسؤولون**﴾[٤٣]؛ قال مجاهد عن حب علي؛

١١ـ وقوله تعالى: ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء**﴾[٤٤]؛

١٢ـ قوله تعالى: ﴿**والسابقون السابقون**﴾[٤٥]؛

١٣ـ قوله تعالى: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا إذا ناجيتم الرّسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقةً**﴾[٤٦]؛

١٤ـ قوله تعالى: ﴿**أولئك هم خير البرية**﴾[٤٧]؛ قال مجاهد: هم علي(ع) وأهل بيته ومحبّوهم.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ما انزل اللّه في القرآن آية إلّا وعلي رأسها وأميرها.

قال سبط ابن الجوزي[٤٨]: «وأما السنّة فبأخبار نبدأ منها بما ثبت في الصحيح والمشاهير من الآثار». وبعد هذا القول يشير إلى احاديث وردت في علي(ع)؛ ويذكر هنا عناوينها فقط:

١ـ حديث المنزلة: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبيّ بعدي» أخرجاه في الصحيحين واتفق عليه.

٢ـ حديث الراية: قال احمد في المسند:... وأخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين واتفقا عليه من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول اللّه(ص)، يوم خيبر: «لأعطين الراية ـ او هذا الراية ـ غداً رجلاً يحب اللّه ورسوله، ويحبه اللّه ورسوله يفتح اللّه على يديه».

٣ـ حديث ارتقائه(ع) على كتفي رسول اللّه(ص) لقذف الاصنام من البيت وكسرها.

٤ـ حديث المحبّة: وأخرج الترمذي عن أم سلمة أ

قالت: سمعت رسول اللّه (ص) يقول: «لايحبّ عليّاً إلّا مُؤمن ولايبغضه إلّا مُنافق». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٥ـ حديث الولاية في حجة الوداع كما مرّ.
٦ـ حديث ليلة الهجرة، كما مرّ.
٧ـ حديث في التضحية.
٨ ـ حديث في دعاء النبي(ص) له بالسلامة وأنه مغفور له.
٩ـ حديث في قراءته البراءة، وقوله(ص) علي منّي.
١٠ـ حديث الطائر.
١١ـ حديث خاصف النّعل.
١٢ـ حديث في سدّ الأبواب.
١٣ـ حديث في النجوى والوصية.
١٤ ـ حديث في قوله (ص): من آذى عليّاً فقد آذاني.
١٥ـ حديث في قضائه(ع).
١٦ـ حديث مدينة العلم[٤٩].
نكتفي بهذا حذر الإسهاب.

* * *

علي(ع) في ساحة الوحدة

فلمّا لحق رسول اللّه(ص) إلى الرفيق الأعلى أقام قوم أمراً كان اللّه قضاه ورسوله أبرمه. كما قال أمير المؤمنين:

«امّا الاستبدادُ علينا بهذا المقام، ونحن الأعلون نسباً، والأشدُّون برسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله، نوطاً، فإنّها كانت أثرةً شحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوسُ آخرين، والحكم اللّهُ، والمعودُ إليه القيامة »[٥٠].

لمّا انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السّلام أنباء السّقيفة بعد وفاة رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، قال عليه السّلام: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت: منّا امير ومنكم أمير؛ قال عليه السّلام:

«فَهلا احتججتم عليهم بأنَّ رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسَلَّم، وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مُسيئهم؟».

قالوا: وما في هذا من الحجّة عليهم؟ فقال عليه السّلام:

«لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم».

ثمّ قال عليه السلام: «فماذا قالت قريش؟».

قالوا: احتجّت بأنّها شجرة الرسول، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

فقال عليه السلام: «احتجُّوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة »[٥١].

بعد أن تمت البيعة في السقيفة لأبي بكر، خاطبه العبّاس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة، خطب وقال: «أيُّها الناسُ شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة. أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح. هذا ماءٌ آجنٌ، ولقمةٌ يغص بها آكلها؛ ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه.

فإن أقل يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت! هيهات بعد اللتيا والتي! واللّه لابن أبي طالبٍ آنس بالموت من الطفل بثدي أمه؛ بل اندمجت على مكنون علمٍ لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشيةِ في الطَّويِّ البعيدة!»[٥٢].

قام الإمام عليه السلام بعد الرسول صلّى اللّه عليه وآله، لحفظ وحدة المسلمين، واطمينان الدّين: «في العين قذى وفي الحلق شجا»، وحقّه مغتصب، كما يكتب عليه السلام في كتاب إلى اهل مصر:

«أمّا بعد، فإن اللّه سبحانه بعث محمداً، صلّى اللّه عليه وآله وسلم، نذيراً للعالمين، ومهيمناً على المرسلين. فلمَّا مضى عليه السلام، تنازع المسلمون الأمر من بعده. فواللّه ما كان يُلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده، صلّى اللّه عليه وآله وسلم، عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده! فما راعني إلّا انثيال الناس على فلانٍ يبايعونه، فأمسكت يدي حتّى رأيتُ راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد، صلّى اللّه عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً؛ تكونُ المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيامٍ قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحابُ؛ فنهضتُ في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأنَّ الدِّينُ وتنهنه »[٥٣].

* * *

أبعدوا الإمام عن حقّه، ولكنّ الإمام بقي وثبت في ساحة المجتمع الإسلامي، بايع الخلفاء، وكان لهم مشيراً أميناً وهادياً

إلى الرشد ولصالح المجتمع الاسلامي؛ شاوره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه منعه وقال له:

«إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفةً دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر اللّه فذاك ما تحبُّ، وإن تكن الأخرى، كنت ردءاً للناس ومثابةً للمسلمين»[٥٤].

وهكذا كان مشيراً أميناً لعثمان بن عفّان، ولكن عثمان اختار جميع وُلاته وعمّاله وأياديه ومشاوريه من أقربائه من بني أميّة، وهم يمقتون علي بن أبي طالب وكانوا يقولون لِعثمان: إنّ علياً ينافسك في السلطان وما يقوله للنّاس فهو لصالح نفسه؛ ويحسب عثمان أنّهم صدقوا وكان يظنّ عليّاً ظنّ السوء؛ ولكنّ بعد أن نقم النّاس على عثمان واجتمعوا في المدينة وعظم أمرهم، نهض علي لاصلاح أمر الأمّة ونصح عثمان كراراً وبالغ في النصيحة، وخاف أن تنشر الفتن العمياء في الأمّة، وتشتعل نار الفوضوية، وحذّر عثمان من أعمال تدفعه إلى موقف لا مرّد له، وبيّن دواء دائه، والطريق الّذي سلك كي ترضى عنه الأمّة؛ وعثمان كان يتقبل في كلّ مرّة ولكن بعد إعلان رأيه لمروان كان يدفعه لنكث العهد والرجوع إلى موقفه الأوّل. وقال عليه السّلام له:

«إنّ الناس ورائي وقد استسفروني بينك وبينهم، ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدُلك على أمرٍ لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم. ما سبقناك إلى شيءٍ فنخبرك عنه... وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحقّ منك... فالله الله في نفسك! فإنك ـ واللّه ـ ما تبصر من عَمىً، ولا تعلمُ من جهلٍ، وإنّ الطرقُ لواضحةٌ، وإن أعلام الدِّين لقائمةٌ... وإني أنشدك اللّه ألا تكون إمام هذه الأمةِ المقتول، فإنه كان يُقال: يُقتل في هذه الأمّة إمامٌ يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبسُ أمورها عليها، ويبثُ الفتن فيها، فلا يبصرون الحقَّ من الباطل؛ يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً. فلا تكوننَّ لمروان سيقةً يسوقك حيث شاء بعد جلال السِّنِّ وتقضي العُمر...»[٥٥].

يقصّ الإمام عليه السّلام ما جرى عليه في هذه الفترة ويقول:

«وطفقتُ أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخيةٍ عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيبُ فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربّه!

فرأيت أنَّ الصبر على هاتا أحجى؛ فصبرتُ وفي العين قذىً، وفي الحلق شجاً»[٥٦].

«اللّهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم؛ فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، واجمعوا على مُنازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: ألا إنَّ في الحقِّ أن تأخذه، وفي الحقِّ أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو مُت متأسفاً. فنظرت فإذا ليس لي رافدٌ ولا ذابٌ ولا مُساعدٌ إلّا أهل بيتي؛ فضننتُ بهم عن المنيّة؛ فأغضيتُ على القذى، وجرعتُ ريقي على الشجا، وَصبرتُ من كظم الغيظ على أمَرَّ من العلقم، وآلم للقلب من وخز الشِّفار»[٥٧].

فسايرهم الإمام إلى غاية الحقّ، معتصماً بحبل اللّه لكي لا ينتهي الأمر إلى الفرقة واختلاف الكلمة، ولكنّهم ساروا إلى غايتهم وفعلوا ما فعلوا. يقول الإمام للشّورى:

«فصبرتُ على طول المدة، وشدة المحنة؛ حتى إذا مضى لسبيله[٥٨] جعلها[٥٩] في جماعة زعم أني أحدهم، فياللّه وللشورى! متى اعترض الريبُ فيَّ مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر! لكني أسففتُ إذا أسفوا، وطرت إذا طاروا؛ فصغا رجلٌ منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هنٍ وهنٍ...»[٦٠].

وقال لاعضاء الشّورى حجّةً عليهم وتحذيراً من العاقبة:

«لَن يُسرع أحدٌ قبلي إلى دعوة حقٍّ وصلة رحمٍ، وعائدةِ كرم؛ فاسمعوا قولي وعوا منطقي؛ عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوفُ، وتخان فيه العهود، حتّى يكون بعضكم أئمةً لأهل الضلالة، وشيعةً لأهل الجهالة»[٦١].

وموقف الإمام في هذا كلّه، موقف الإرشاد واتمام الحجّة وبيان الحقّ! والإعلام والتفهيم للعامّة:

«وقد قال قائلٌ: إنك على هذا الأمر يابن أبي طالب لحريصٌ؛ فقلتُ: بل أنتم واللّه، لأحرص وأبعدُ، وأنا أخصُّ وأقرب، وإنّما طلبت حَقاً لي، وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه. فلمّا قرعته بالحُجَّة في الملإ الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبُني به!»[٦٢].

صبر الامام واستقام على طول المدة الّتي كانت كأنّها دهر طويل وأمد بعيد، لأن لا ينتكث فيها فتل الأمّة، وحبل النظام، ولكنّ بني أميّة عزموا على هدم بيت الإسلام، وأن يتخذوا مال اللّه دولاً وعباده خولاً، إنّ ما دفع الإمام إلى أيّ سكون وأيّ حركة هو نظام الاسلام واصلاح أمر الأمّة فحسب.

كان للإمام من تقوى اللّه بصيرة أن يرى ما يأتي على الأمّة الإسلامية جليّاً؛ يكتب إلى أهل مصر سبب اتّخاذ الموقف:

«وإني إلى لقاء اللّه لمشتاقٌ، وحسن ثوابه لمنتظرٌ راجٍ ؛ ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمّة سُفهاؤها وفجّارها؛ فيتخذوا مال اللّه دولاً، وعبادهُ خولاً، والصّالحين حرباً، والفاسقين حزباً »[٦٣].

اتخذ سفهاء بني أميّة وفجّارها مال اللّه دولاً وعباد اللّه خَوَلاً، ولكنّ الناس استيقظوا وتنبّهوا من الغفلة، وأثاروهم عمّال عثمان ودفعوهم إلى أعمال فيها خسارات عظيمة وكسر عظم الأمّة لايُجبر. وقال:

«إلى أنْ قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه، وقام معه بنو أبيه يخضمون مال اللّه خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته!»[٦٤] .

جمع أمير المؤمنين أمر عثمان في كلمتين:

«استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع. وللّه حُكم واقعٌ في المستأثر والجازع »[٦٥] .

وبعد هذا الجزع انتبهوا من الغفلة، ووجدوا سبيلاً تركوه منذ خمس وعشرين سنة، فهاجموا إليه، واستدعوه أن يأخذ زمام أمر الأمة، ولكنّ الإمام رفض دعوتهم وقال: «دعوني والتمسوا غيري؛ فإنّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوانٌ؛ لا تقوم له القلوب، ولا تثبتُ عليه العقول. وإنّ الآفاق قد أغامت، والمحجّة قد تنكرت! واعلموا أني إن أجبتكم رَكبتُ بكم ما أعلمُ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم؛ ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خير لكم منّي أميراً»[٦٦].

ولكنّ النّاس الحوا وأصرّوا ولن يرضوا أحداً لتولية الأمر، وأجابهم الإمام بالقبول لأمرين:

«أما والذي فلق الحبة وبرأ النّسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر؛ وما أخذ اللّه على العُلماء ألا يقاروا على كظّة ظالمٍ ولا سغب مظلومٍ ، لألقيتُ حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دُنياكم هذه أزهد عندي من عفطةِ عنزٍ»[٦٧].

ويقول في وصف بيعته بالخلافة في كتاب أو كلام:

«وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتُها، ثُمّ تداككتم عليَّ تداك الإبل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انقطعت النعل، وسقط الرداءُ، ووطيءَ الضعيفُ، وبلغ من سرورِ النّاس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصّغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليلُ، وحسرت إليها الكعابُ »[٦٨] .

وهذا كان إقبال العامّة والّذين ماكان يربطهم إلى الدنيا وزبرجها حبّ المال أو الرّياسة او غيرهما؛ ولكنّ الخاصّة اندفعت وراء الناس وطفت على أمواج الناس إلى الإمام، وبايعوه كراهةً، ولكن اضمروا كراهتهم وما اظهروه ليوم ما، اغتناماً للفرصة لكي يصلوا بسبب تظاهرهم هذا إلى الغاية، فلمّا رأوا أنّ عليّاً ما كان الّذي طمحوا وتوقعوا، ما استقاموا على بيعتهم وساروا إلى وصول هدفهم وحفظ مصالحهم:

«فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفةٌ، ومرقت أخرى، وقسط آخرون؛ كأنّهم لم يسمعوا اللّه سبحانه يقول: «تلك الدّارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً، والعاقبةُ للمتقين» بلى! واللّه لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجُها!»[٦٩] .

عليّ(ع) في ساحة العدالة

بعدما قام الإمام بأمر الولاية فرح المستضعفون من النّاس وحذر الّذين يأكلون أموال النّاس دولاً ويأخذون عباداللّه خولاً، ويطمعون أن يحتفظوا بما كان في أيديهم، ولكنّ الإمام صرّح بأنّه لن يبقى على شيءٍ ما كان في الزمن الماضي. خطب لما بويع بالمدينة وتحدث عن الظروف الاجتماعية الراهنة، وطرق علاجها.

«ذمتي بما أقول رهينةٌ، وأنا به زعيمٌ:

إنّ من صرحت له العبر عمّا بين يديه من المَثُلات، حجزه التقوى عن تقحم الشبهات.

ألا وإنّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث اللّه نبيه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

والذي بعثه بالحق، لتبلبلنَّ بلبلةً، ولتغربلنَّ غربلةً ولتساطنَّ سوط القدر حتّى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنَّ سابقون كانوا قصروا، وليقصرنَّ سبّاقون كانوا سبقوا!»[٧٠].

وأعلن فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان:

«واللّه لو وجدته قد تزوج به النساءُ، وملك به الإماءُ لرددته! فإنَّ في العدل سعةً، ومن ضاق عليه العدلُ، فالجور عليه أضيق!»[٧١].

الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في عصر رسول اللّه وزهدوا عن الدنيا، مالوا إلى الدنيا فلمّا مالت إليهم في زمن الخليفة الثّاني لكثرة الغنائم وتقسيمها عليهم أثرةً، بعد ما كان تقسيمها أسوة في زمني رسول اللّه وخليفته الأوّل أبي بكر، ثمَّ غرقوا في الترف وغرّتهم الدّنيا بثروتها وقدرتها وراقهم زبرجها في زمن عثمان بن عفّان، فطمع الطلحة والزبير الشركة في أمر الخلافة والتمتع ممّا كانا متمتعان بما سبق، ولكنّ الإمام لا يعرف لهما ولأيّ مسلم أو إنسان آخر ميزّة او أثرة أبداً. فلمّا قال له طلحة والزبير : «نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر» قال عليه السلام:

«لا، ولكنكما شريكان في القوة والإستعانة، وعونان على العجز والأود »[٧٢].

فلمّا عتبا عليه من ترك مشورتهما، والاستعانة في الأمور بهما، وعدم تفضيلهما في العطاء، قال عليه السلام لهما:

«واللّه ما كانت لي في الخلافة رغبةٌ، ولا في الولاية إربةٌ، ولكنّكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها، فلمّا أفضت إليَّ نظرتُ إلى كتاب اللّه وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استنَّ النبيُّ، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حُكم جهلته فأستشيركما وإخواني من المسلمين؛ ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما. وأمّا ما ذكرتما من أمر الأسوة، فإنَّ ذلك أمرٌ لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوىً منّي، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ اللّه من قسمه، وأمضى فيه حكمه؛ فليس لكما، واللّه، عندي ولا لغيركما في هذا عتبي. أخذ اللّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، والهمنا وإيّاكم الصبر »[٧٣].

فلمّا رأيا أن لا يستطيعا مسايرة أمير المؤمنين وحمله على قبول رأيهما في قسم المال على سنّتي عمر وعثمان وإشراكهما في الأمر، استأذنا في العُمرة، فأذن لهما، فلحقا بمكة.

وعائشة أم المؤمنين ـ رضى اللّه عنها ـ خرجت إلى مكّة وعثمان محصورٌ، «ولما انتهت إلى سرف راجعة في طريقها إلى مكّة، لقيها عبد بن أمّ كلاب، فقالت له: مَهيم؟ قال: قتلوا عثمان رضي اللّه عنه فمكثوا ثمانياً؛ قالت: ثمّ صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز؛ اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب. فقالت: واللّه ليت أنّ هذه [السماء] انطبقت إلى هذه [الأرض] إن تمّ الأمر لصاحبك! رُدُّوني رُدّوني. فانصرفت إلى مكّة وهي تقول: قتل واللّه عثمان مظلوماً، واللّه لأطلبنّ بدمه. فقال لها ابن أم كلاب: ولم؟ فواللّه إنَّ اول من أمال حرفه لأنتِ! ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً فقد كفر؛ قالت: إنهم استتابوه ثمّ قَتَلوه، وقد قلتُ وقالوا، وقولي الأخير خيرٌ مِن قولي الأوّل »[٧٤].

حرب الجمل

فبينا الإمام واصحابه كانوا يهيّؤون لحرب معاوية وأهل الشام إذ جاء الخبر عن أهل مكّة بسير عائشة وطلحة والزبير وجماعة من بني أميه والعثمانيّين نحو البصرة، فقام أمير المؤمنين فيهم وقال:

«إنَّ هؤلاء قد تمالؤوا على سخطةِ إمارتي، وسأصبر مالم أخف على جماعتكم؛ فإنهم إن تموا على فيالةِ هذا الرأي انقطع نظام المسلمين؛ وإنما طلبوا هذه الدُّنيا حسداً لمن أفاءها اللّه عليه، فأرادوا رد الأمور على أدبارها. ولكم علينا العمل بكتاب اللّه تعالى وسيرة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، والقيام بحقه، والنعش لسنته »[٧٥].

يصف الإمام عليه السلام سيرهم إلى البصرة وأعمالهم فيها: «فخرجوا يجرون حرمة رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله، كما تجرُّ الأمة عند شرائها، متوجهين بها إلى البصرة، فحبسا نساءهُما في بيوتهما، وأبرزا حبيس رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله، لهما ولغيرهما، في جيشٍ ما منهم رجلٌ إلّا وقد أعطاني الطَّاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعاً غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها؛ فقتلوا طائفةً

صبراً، وطائفة غدراً. فواللّه لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلاً واحداً معتمدين لقتله، بلا جرمٍ جرَّه، لحلّ لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد؛ دع ما أنّهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدَّة التي دخلوا بها عليهم!»[٧٦].

وخرج الإمام من المدينة إلى البصرة مع عدّة قليلة لكي يفيئهم إلى الطاعة ويصرفهم عن إيجاد الفرقة والخلاف بين المسلمين، «فأمر على المدينة تمام بن العبّاس، وبعث إلى مكّة قُثم بن العباس ... فاستبان له بالربذة أن قد فاتوه»[٧٧]، وأشير عليه بألا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال، فأجاب عليه السّلام:

«واللّه لا أكون كالضبع: تنام على طول اللّدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدُها؛ ولكنّي أضرب بالمقبل إلى الحق المُدبر عنه، وبالسّامع المُطيع العاصي المُريب أبداً، حتى يأتي عليَّ يومي فواللّه ما زلتُ مدفوعاً عن حقي، مُستأثراً عليَّ، مُنذ قبض اللّه نبيهُ، صلّى اللّه عليه وسلّم، حتى يوم الناس هذا»[٧٨].

كتب الامام عليه السلام كتباً من الربذة إلى أهل الكوفة وإلى ساير البلاد واعلمهم بما جرى في المدينة من قتل عثمان بن عفان وبيعته بعده، ونكث بيعته من طلحة والزبير وخروجهما وخروج عايشة، ودعوهم إلى نصرته. وخرج أمير المؤمنين في أهل المدينة وأهل الكوفة «وراية عليّ مع ابنه محمّد بن الحنفيّة، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيل عمّار بن ياسر، وعلى الرّجالة محمد بن أبي بكر، وعلى المقدمة عبداللّه بن العباس. فالتقوا بموضع قصر عبيداللّه بن زياد، في النّصف من جُمادي الآخرة يوم الخميس. وكانت الوقعة يوم الجمعة»[٧٩].

أرسل أمير المؤمنين إلى طلحة والزبير أن يردّهما عن الحرب، لقي الإمام الزّبير ونبّهه بأمرٍ انصرف الزبير منه.

وقتل طلحة في الوقعة، وقتل من الجيشين ناسٌ كثير، وكانت عائشة في هودج على جمل. فلمّا رآها أصحاب الجمل، استمرّ القتال حتى عقروا أصحاب عليّ الجمل. ونادى منادي عليّ يوم الجمل يقول: «لا يُسلبن قتيل، ولا يُتبع مدبر، ولا يجهز على جريح»[٨٠].

«فجهز علي عائشة باحسن الجهاز وبعث معها أربعين امرأة ـ وقال بعضهم: سبعين امرأة ـ حتى قدمت المدينة»[٨١].

فلمّا انتهت الحرب دخل الإمام عليه السلام البصرة وقال: «كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة، رغا فأجبتم، وعُقر فهربتم. أخلاقكم دقاقٌ، وعهدكم شقاقٌ، ودينكم نفاقٌ، وماءكم زعاقٌ، والمقيم بين أظهركم مرتهنٌ بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمةٍ من ربه»[٨٢].

* * *

علي(ع) في الكوفة

قالوا: ولما بايع علي أهل البصرة؛ أراد الشخوص إلى الكوفة؛ فاستخلف عبداللّه بن العبّاس على البصرة؛ وخطب فأمر أهلها بالسمع والطاعة له، وضمّ إليه زياد بن أبي سفيان كاتباً، وكان يقال له يومئذ: زياد بن عبيد، وسار مع علي وجوه أهل البصرة فشيعوه إلى موقوع، وهو موضع قريب من البصرة، منه يرجع المشيعون، ثمّ رجعوا[٨٣].

المدائني عن عوانة قال: قال علي: «سرتُ في أهل البصرة سيرة رسول اللّه،صلّى اللّه عليه وآله وسلم، في أهل مكة».

وقال أبو مخنف: قدم علي من البصرة إلى الكوفة في رجب سنة ستّ وثلاثين. وقال غيره: في رمضان سنة ستّ وثلاثين[٨٤].

وفي هذه السنة بعث علي بن أبي طالب على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاريّ فقال له:

«سر إلى مصر فقد وليتُكها، واخرج إلى رحلك، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جندٌ، فإنّ ذلك أرعب لعدوك وأعزُّ لوليِّك. فإذا أنت قدمتها إن شاء اللّه، فأحسن إلى المُحسن، واشتد على المُريب، وارفق بالعامة والخاصّة، فإن الرفق يمنٌ»[٨٥].

وكتب إلى معاوية:

«من عبداللّه علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أمّا بعد، فقد علمت إعذاري فيكم وإعراضي عنكم، حتى كان ما لابُدَّ منه ولا دفع له، والحديث طويلٌ والكلام كثيرٌ؛ وقد أدبر ما أدبر وأقبل ما أقبل. فبايع من قبلك وأقبل إليَّ في وفدٍ من أصحابك. والسّلام»[٨٦].

ولكن معاوية امتنع عن البيعة واحتجّ بحجج باطلة وعمد إلى المماطلة، وسأل عن قتلة عثمان ودفعهم إليه. «فكتب أمير

المؤمنين، عليه السلام، إلى جرير بن عبدالله البجلي، وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر همدان،... ثمّ أقبل جريرٌ سائراً من ثغر همدان حتّى ورد على علي، عليه السلام، بالكوفة، فبايعه ودخل فيما دخل فيه النّاس، من طاعة علي، واللزوم لأمره. فأراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولاً. فقال له جرير: إبعثني إلى معاوية فإنه لم يزل لي مستنصحاً ووُدّاً، فآتيه فأدعوه على أن يسلّم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحقّ، على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك ما عمل بطاعة الله، اتبع ما في كتاب الله؛ وأدعو أهل الشام إلى طاعتك و ولايتك، وجلّهم قومي وأهل بلادي، وقد رجوت ألّا يعصوني. فبعثه علي عليه السّلام، وقال له حين أراد أن يبعثه: «ايتِ معاوية بكتابي. فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلّا فانبذ إليه، وأعلِمه أني لا أرضى به أميراً، وأنَّ العامّة لا ترضى به خليفة.» فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية، ودفع إليه كتاب علي بن أبي طالب، وفيه [٨٧].

«[بسم الله الرحمان الرَّحيم. أمّا بعدُ، فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لِـ.] أنَّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يَرُدَّ، وإنما الشُّورى للمُهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ وسموهُ إماماً كان ذلك لله رضىً، فإن خرج عن أمرهم خارجٌ بطعنٍ أو بدعةٍ ردُّوهُ إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتّباعه غير سبيل المؤمنين، وولاهُ اللّهُ ما تولى. [ويصليه جهنم وساءت مصيراً. وإنَّ طلحة والزبير بايعاني ثُمَّ نقضا بيعتي، وكان نقضهما كردِّهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحقُّ وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون؛ فإنَّ أحبَّ الأمور إلَيَّ فيك العافية، إلّا أن تتعرض للبلاء. فإن تعرضت لهُ قاتلتك واستعنت الله عليك. وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المُسلمون، ثُمَّ حاكم القوم إليَّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله. فأمّا تلك التي تريدها فخدعة الصَّبيِّ عن اللَّبن.]

ولعمري، يا معاويةُ، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عُثمان، ولتعلمنَّ أنّي كُنت في عزلةٍ عنه إلّا أن تتجنَّى؛ فتجنَّ ما بدا لك! [وأعلم أنّك من الطُّلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلتُ إليك وإلى من قبلك جرير بن عبدالله، وهو من أهل الإيمان والهجرة فبايع ولا قُوَّةَ إلّا باللّهِ.] والسَّلامُ »[٨٨].

فلمّا تأخّر معاوية عن جواب صريح، كتب الإمام إلى جرير:

«أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثمَّ خيره بين حربٍ مجليةٍ أو سلمٍ مُخزيةٍ، فإن اختار الحرب فانبذ إليه، وإن اختار السِّلم فخذ بيعته، والسَّلام »[٨٩].

أبطأ معاوية في جواب علي وأرسل إلى عمرو بن العاص، فلمّا أتاه أعطاه مصر طعمة وشرط عليه طاعة وكتب له كتاباً: «على أن لا ينقض شرطٌ طاعةً» وكتب عمرو: «على ألّا تنقض طاعةٌ شرطاً». ودعا رؤساء بعض القبايل وتهيّأ للحرب. ولّما سمع الامام عليه السَّلام هذه الأنباء قال في عمرو بن العاص وفي أمر معاوية:

«ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً، فلا ظفرت يد البائع وخزيت أمانة المُبتاع؛ فخذوا للحرب أهبتها، وأعدُّوا لها عُدتها، فقد شبَّ لظاها، وعلا سناها، واستشعروا الصَّبر، فإنَّه أدْعى إلَى النصر »[٩٠].

وقعة صِفّين

وعندما طال الانتظار على أصحابه المستعدين لقتال أهل الشام، اجتمعوا على الإمام وأستأذنوه للحرب، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فتداكوا علي تداكَّ الإبلِ الهيم يوم وردها، وقد أرسلها راعيها وخُلعت مثانيها؛ حتَّى ظننتُ أنهم قاتليَّ، أو بعضهم قاتلُ بعضٍ لديَّ. وقد قلَّبتُ هذا الأمر بطنه وظهره حتّى منعني النَّومَ؛ فما وجدتني يسعني إلَّا قتالُهم أو الجحود بما جاء به محمدُ صلّى الله عليه وسلم، فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب، وموتات الدُّنيا أهونَ عليَّ من موتاتِ الآخرة »[٩١].

ولما أراد علي المسير إلى أهل الشّام دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أمّا بعد، فإنكم ميامينُ الرأيِّ، مراجيح الحِلم، مقاويل بالحقِّ، مباركوا الفعل والأمر. وقد أردنا المسير إلى عَدوِّنا

وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم »[٩٢].

فأجابوه بأحسن الجواب. ثم كتب عليه السّلام إلى عمّاله وأمراء الأجناد وأمراء جيشه وحرّض النّاس على الجهاد؛ ثمّ عسكر بالنخيلة وخطب بها عند المسير إلى الشام وقال:

«الحمد لله كلما وقبَ ليلٌ وغسق، والحمد لله كلما لاح نجمٌ وخفق، والحمد لله غير مفقود الإنعام، ولا مُكافإ الإفضال.

أمّا بعد، فقد بعثتُ مقدمتي، وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتّى يأتيهم أمري، وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة إلى شرذمةٍ منكم، موطّنين أكناف دجلة، فأنهضهُم معكم إلى عدوّكم، وأجعلهم من أمداد القُوّةِ لكم »[٩٣].

وكان شخوص امير المؤمنين علي عليه السّلام من عسكره بالنخيلة إلى الشام لخمس مضين من شوال سنة ستّ وثلاثين يوم الأربعاء.

«استعمل علي عليه السلام على مقدمته الأشتر بن الحارث النخعي، واستعمل معاوية على مقدمته سفيان بن عمرو: أبا الأعور السلمي. فأتى الأشترُ صاحب مقدمة المعاوية وقد سبقه إلى المعسكر على الماء، وكان الأشتر في أربعة آلاف من متبصّري أهل العراق، فأزالوا أبا الاعور عن معسكره، وأقبل معاويةُ في جميع الفيلق. فلمّا رأى ذلك الأشتر انحاز إلى علي عليه السّلام، وغلب معاوية على الماء، وحال بين أهل العراق وبينه. وأقبل علي عليه السّلام حتّى إذا أراد المعسكر إذا القوم قد حالوا بينه وبين الماء»[٩٤] فخطب وقال:

«قد استطعموكم القتال، فأقروا على مذلةٍ، وتأخير محلّةٍ؛ أو روّوا السُّيوفَ من الدِّماء تروووا من المآء؛ فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين. ألا وإنّ معاوية قادَ لُمّةً من الغواة، وعمّس عليهم الخبر، حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة »[٩٥].

فترجّل الأشعث والأشتر وذوُوا البصائر من أصحاب علي، وترجل معهما اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو ومن معه من أهل الشام فأزالوهم عن الماء حتّى غمست خيلِ علي سنابكها في الماء »[٩٦].

فلمّا غلب علي على الماء فطرد عنه أهل الشام بعثَ إلى معاوية: «إنّا لا نكافيك بصُنعك، هلمَّ إلى الماء فنحن وانتم فيه سواء »[٩٧].

فلمّا حلّت الأشهر الحُرُم تداعَى النّاسُ أن يكفَّ بعضُهم عن بعضٍ إلى أن تنقضي الأشهر الحرم، لعلّ اللّه يُجري صلحاً واجتماعاً. فكفّ الناس بعضُهم عن بعض. ولما توادع علي عليه السلام ومعاوية بصفين اختلفت الرُّسل فيما بينهما رجاء الصُّلح. ولكنّ معاوية ما اراد الصلح وإصلاح امر المسلمين بل اراد الفتنة والوصول فيها إلى امنيته، ففشل كلّ ما بذل امير المؤمنين من الجهود. فلمّا «انسلخ المحرّم أمر علي عليه السلام مرثد بن الحارث الجشمي فنادى عند غروب الشمس: يا أهل الشّام، ألا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: إنّي قد استدمتكم واستأنيتُ بكم لتراجعوا الحقَّ وتنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب اللّه ودعوتكم إليه، فلم تتناهوا عن طغيانٍ، ولم تجيبوا إلى حقّ. وإنّي قد نبذتُ إليكم على سواء، إنّ اللّه لا يحبُّ الخائنين »[٩٨].

فثار النّاس إلى أمرائهم ورؤسائهم. وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتّبان الكتائب ويعبيان العساكر، وبات علي عليه السّلام ليلته كلّها يعبّي النّاس، ويكتّب الكتائب، ويدور في النّاس يحرّضهم، وقال عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدو بصفّين:

«لا تقاتلوهم حتّى يبدؤوكم، فإنكم بحمد اللّه على حُجةٍ، وتركُكم إياهم حتّى يبدؤوكم حُجّة أخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمةُ بإذن اللّه فلا تقتلوا مُدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النِّساء بأذىً، وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم؛ فإنهنَّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول؛ إن كنا لنؤمَرُ بالكفِّ عنهنَّ وإنهنَّ لمشركاتٌ؛ وإن كان الرجلُ ليتناول المرأة في الجاهليَّة بالفهر أو الهراوة فَيُعيَّرُ بها وعقبه من بعده »[٩٩].

تقاتل العسكران فرادى وجماعات وكتائب، حتّى أمر أمير المؤمنين عساكره وقال: «حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا؟»[١٠٠].

فاشتدّ القتال بين أهل العراق وأهل الشام. إنّ الفيلقين التقيا بصفّين واضطربوا بالسُّيوف ليس معهم غيرُها إلى نصف اللّيل.

«قال زياد بن النضر الحارثي، وكان على مقدّمة علي، قال: شهدتُ مع علي بصفّين، فاقتتلنا ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليال، حتّى

Page 21

تكسرت الرماح ونفدَت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف اللّيل، حتّى صرنا نحنُ وأهلُ الشّام في اليوم الثالث يعانقُ بعضنا بعضاً... فلمّا كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاويةُ وخيلُه من الصف، وغلب علي عليه السلام على القتلى في تلك الليلة، وأقبل على أصحاب محمّد، صلّى الله عليه وأصحابه، فدفنهم، وقد قُتِلَ كثيرٌ منهم، وقد قُتِلَ من أصحاب معاوية أكثر»[١٠١].

المشهور أنّه عليه السّلام قال لأصحابه ليلة الهرير:

«معاشر المُسلمين: ٱستشعروا الخشية، وتجلببوا السَّكينة، وعضُّوا على النواجذ، فإنه أنبى للسُّيوفِ عن الهام، وأكملوا اللأمة، وقلقلوا السيوف في أغمادها قبل سلّها. والحظوا الخزر، واطعنوا الشزر، ونافحوا بالظبا، وصلوا السُّيوف بالخطا، واعلموا أنَّكم بعين اللّه، ومع ابن عمِّ رسول اللّه. فعاودوا الكرَّ، واستحيوا من الفرِّ، فإنَّهُ عارٌ في الأعقاب، ونارٌ يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سُجحاً، وعليكُم بهذا السَّواد الأعظم، والرواق المُطنَّب، فاضربوا ثبجه، فإن الشيطان كامنٌ في كسره، وقد قدم للوثبة يداً، وأخر للنكوص رجلاً. فصمداً صمداً! حتّى ينجلي لكم عمود الحقِّ، «وأنْتُمُ الأعلَوْنَ، واللّهُ معكُمْ، ولن يتركُمْ أعمالكم»[١٠٢].

«فاجتلدوا بالسُّيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف اللّيل، لم يصلُّوا للّه صلاة. فلم يزل يفعل ذلك الأشتُر بالنّاسِ حتّى اصبح والمعركةُ خلف ظهره. وافترقوا عن سبعين ألف قتيلٍ في ذلك اليوم وتلك اللّيلة، وهي «ليلة الهرير». وكان الاشتر في ميمنة الناس، وابن عبّاس في الميسرة، وعلّي في القلب، والنّاس يقتتلون[١٠٣]»[١٠٤].

«فثار أهل الشام فنادوا في سواد اللّيل: يا أهل العراق، من لذرارينا إن قتلتمونا ومن لذراريكم إن قتلناكم؟ اللّه اللّه في البقيّة. فأصبح أهلُ الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلّدوها الخيل، والنّاس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه، ورُفعِ مصحفُ دمشقَ الأعظمُ تحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح ونادوا: يا أهل العراق، كتاب اللّه بيننا وبينكم...»[١٠٥] اختلفوا اصحاب علي عليه السلام في الاجابة لأهل الشام، عدي بن حاتم والأشتر النخعي وعمرو بن الحِمَق قالوا باستمرار القتال وقرع الحديد بالحديد،ولكن الأشعث بن قيس قال: يا أمير المؤمنين: أجب القومَ إلى كتاب اللّه فإنّك أحقُّ به منهم. وقد أحبّ النّاسُ البقاء وكرهُوا القتال. فقال علي عليه السَّلام: «إنَّ هذا أمرٌ يُنظرُ فيه»[١٠٦].

فلمّا اختلف اصحاب علي في استمرار القتال او الموادعة ماج الناس وقالوا: أكلتنا الحربُ وقُتلت الرجال. وقال قوم: نقاتل القومَ على ماقاتلناهم عليه أمس، ولم يقل هذا إلاّ قليلٌ من الناس، ثمّ رجعوا عن قولهم مع الجماعة، وثارت الجماعة بالموادعة.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة: «أيُّها الناسُ، إنَّه لم يزل أمري معكُم على ما أُحبُّ حتَّى نهكتكُمُ الحربُ، وقد واللّه، أخذت منكم وتركت، وهي لعدوِّكُمْ أنهكُ.

لقد كُنتُ أمسِ أميراً، فأصبحتُ اليوم مأموراً، وكنتُ أمسِ ناهياً، فأصبحت اليوم منهياً، وقد أحببتُمُ البقاء، وليس لي أن أحملكُم على ما تكرهون!»[١٠٧]

«فجاءه زهاءُ عشرين ألفاً مقنَّعين في الحديد شاكي السَّلاح، سيوفُهم على عواتقهم، وقد اسودَّت جِباهُم من السُّجود، يتقدمهم مِسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابةٌ من القّراء الذين صاروا خوارج من بعدُ، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي... إبعث إلى الأشتر ليأتيك. وقد كان الأشتر صبيحة ليل الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليدخله»[١٠٨].

فعند ذلك بطلتُ الحربُ ووضعت أوزارها.

مهزلة التحكيم

«وقال النّاس: قد رضينا بحكم القرآن.. فلمّا رضي أهل الشام بعمرو بن العاص، ورضي أهل العراق بأبي موسى، أخذوا في كتاب الموادعة، ورضوا بالحكم حكم القرآن»[١٠٩] وبعدما تجادل أهل العراق كثيراً مع الإمام عليه السلام لاختيار الحُكم، حمّلوا عليه أبا موسى حكمًا كما حمّلوه التحكيم. وكتبوا وثيقة التحكيم «يوم الاربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين»[١١٠].

«خرج الأشعث في النّاس بذلك الكتاب يقرؤه على صفوف أهل الشام، ثم مرَّ به على صفوف أهل العراق. فلمّا قرأه الأشعث برايات عنزة من أهل العراق، قال فتيان منهم:

لا حُكم إلاَّ للّه! ثمّ حملا على أهل الشام بسيوفهما فقاتلا حتى قُتلا على باب رواق معاوية، وهما أوّل من حكّم. ثم حكّموا أشخاصا آخرين من أهل العراق... فما راع الإمام إلاّ نداءُ الناسِ من كلّ جهة وفي كلّ ناحية: لا حكم إلاّ للّه، الحكم للّه يا علي لا لك، لا نرضى بأن يحكم الرِّجال في دين اللّه. وقد كانت منّا زلّة حين رضينا بالحكمين، فرجعنا وتبنا، فارجع أنت يا علي كما رجعنا، وتُب إلى اللّه كما تُبنا، وإلاّ برئنا منك؛ فأبى علي أن يرجع، وأبت الخوارج إلاّ تضليل التحكيم والطعن فيه، وبرئت من عليّ عليه السلام، وبرئ منهم »[١١١]

فرجع أمير المؤمنين عليه السلام من صفّين إلى الكوفة وكتب إلى أهل الأمصار، يقصّ فيه ماجرى بينه وبين أهل صفّين:

«وكان بدءُ أمرنا أنّا التقينا والقومُ من أهل الشّام، والظّاهر أنَّ ربنا واحدٌ، ونبينا واحدٌ، ودعوتنا في الإسلام واحدةٌ، ولا نستزيدهم في الإيمان باللّه والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا؛ الأمر واحدٌ إلاّ ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحنُ منه براءٌ؛ فقلنا: تعالوا نداوِ ما لا يُدرك اليوم بإطفاء النّائرة، وتسكين العامّة، حتّى يشتد الأمرُ ويستجمع، فنقوى على وضع الحقّ مواضعه. فقالوا: بل نداويه بالمُكابرة! فأبوا حتّى جنحت الحربُ وركدت، ووقدت نيرانها وحمشت. فلمّا ضرَّستنا وإيّاهم، ووضعت مخالبها فينا وفيهم، أجابوا عند ذلك إلى الّذي دعوناهم إليه، فأجبناهُم إلى مادعوا، وسارعناهم إلى ما طلبوا، حتّى استبانت عليهم الحُجة، وانقطعت منهم المعذرة. فمن تمَّ على ذلك منهم فهو الذي أنقذه اللّه من الهلكة، ومن لجَّ وتمادى فهو الراكسُ الذي ران اللّهُ على قلبه، وصارت دائرةُ السوءِ على رأسه »[١١٢].

أهلُ النَّهروان ورأيهم في الحَكميَّة

لّما قدم علي الكوفة فارقته المحكّمة ونزلوا بقرية قريبة من الكوفة يُقال لها الحروراء، وبها سموا الحرورية، فبعث أمير المؤمنين عليه السلام عبداللّه بن العبّاس للإحتجاج على الخوارج وأوصاه:

«لاتُخاصمهم بالقرآن، فإنَّ القرآن حمالٌ ذوُ وجوهٍ، تقولُ ويقولون، ولكن حاجِجهم بالسُّنةِ، فإنَّهم لن يجدوا عنها محيصاً »[١١٣]

ولكنّ ابن عبّاس حاججهم بالقرآن وما استطاع أن يحملهم على الرجوع إلى الحق، حتّى ذهب أمير المؤمنين بنفسه وحاججهم بالسنّة وأدخلهم في الحقّ، ولكنّ رؤساؤهم بثّوا الفتن فيهم، وما لبثوا أن هتفوا بشعار التحكيم، ولما سمع عليه السلام قول الخوارج: «لاحُكم إلاَّ للّه» قال: «كلمةُ حقٍ يُراد بها باطلٌ! نعم إنَّه لا حُكم إلاَّ للّه، ولكنَّ هؤلاءِ يقولونَ: لا إمرة إلاَّ للّه، وإنه لابُد للنَّاسِ من أميرٍ برّ أو فاجرٍ، يعملُ في إمرته المؤمنُ ويستمتعُ فيها الكافر، ويبلغُ اللّهُ فيها الأجل، ويجمع به الفيءُ، ويقاتلُ به العَدوُّ، وتأمن به السُّبلُ ويؤخذُ به للضّعيف من القويِّ، حتّى يستريح برٌّ، ويستراح من فاجرٍ »[١١٤]

بينا هو عليه السَّلام يجادل الخوارج وقع التحكيم وبلغه ما حدث من أمر الحكمين، فحمد اللّه على بلائه وبيّن سبب البلوى:

«الحمدُ للّه وإن أتى الدهرُ بالخطب الفادح والحدث الجليل. وأشهد أن لا إله إلاّ اللّهُ لا شريكَ له، ليس معه إلهٌ غيرهُ، وأنَّ مُحمداً عبدهُ ورسوله، صلَّى اللّه عليه وآله.

أمَّا بعدُ، فإن معصية النَّاصح الشَّفيق العالم المُجربِ تُورث الحسرة، وتُعقب الندامة. وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومةِ أمري، ونخلتُ لكم مخزونَ رأيي، لو كان يطاعُ لقصير أمرٌ! فأبيتم علي إباء المُخالفين الجُفاة، والمُنابذين العُصاة، حتّى ارتاب النَّاصحُ بنصحه، وضنَّ الزندُ بقدحه؛ فكنتُ أنا وإياكُم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمُنعرج اللِّوى
فلم تستبينوا النصح إلاَّ ضُحى الغَدِ[١١٥]

«قالوا: خرج علي إلى أهل حروراء فكلّمهم وحاجّهم، وذلك بعد بعثته إبن عبّاس إليهم، فدخلوا جميعاً إلى الكوفة، وكان الرجل منهم يذكر القضية فيخرج فيحكّم، وكان علي يقول: إنَّا لا نمنعهُم الفيء، ولا نحول بينهم وبين مساجد اللّه، ولانهيجهم ما لم يسفكوا دماً وما لم ينالوا مُحرمّاً»[١١٦].

ثمّ إنّهم مضوا إلى النّهروان.

واجمع علي على إتيان صفّين، وبلغ معاوية فسار حتى أتى صفّين.

وكتب علي إلى الخوارج بالنّهروان: «أمّا بعدُ، فقد جاءكُم ما كنتم تريدون فقد تفرَّق الحَكمان على غير حكُومةٍ ولا اتّفاقٍ؛

فارجعوا إلى ما كُنتم عليه فإنّي أُريدُ المسيرَ إلى الشام» فأجابوه أنّه لا يجوز لنا أن نتخذك إماماً، وقد كفرت حتّى تشهد على نفسك بالكفر وتتوب كما تبنا، فإنّك لم تغضب للّه، إنّما غضبت لنفسك»[١١٧] فيقال عليه السّلام:

«أصابكُم حاصبٌ، ولا بقى منكم آثرٌ، أبعد إيماني باللّه وجهادي مع رسول اللّه، صلّى اللّه عليه، أشهدُ على نفسي بالكفر؟! «لقد ضَللتُ إذاً وما أنا من المُهتدين!»[١١٨] فأُوبوا شرَّ مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب. أما إنّكم ستلقونَ بعدي ذُلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرةً يتخذها الظّالمون فيكم سُنّةً»[١١٩].

فلمّا بلغ خبر الجرائم الّتي ارتكبها الخوارج، من قتل ابن خبّاب وامرأته ورسول علي الحارث بن مرّة العبدي ونفراً آخر، علياً ومن معه؛ قالوا له: ماتركنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا وعيالاتنا بما نكره، سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدّونا من أهل المغرب، فإنّ هؤلاء أحضر عداوةً وأنكى حدّاً... ثمّ أتى علي النهروان فبعث إلى الخوارج أن أسلموا لنا قتلة ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثمّ أنا تاركُكم إلى فراغي من أمر أهل المغرب فلعل اللّه يقبل بقلوبكم ويردكم إلى ما هو خير لكم وأملك بكم. فبعثوا إليه أنّه ليس بيننا وبينك إلّا السيف إلّا أن تقرّ بالكفر وتتوب كما تبنا!»[١٢٠] وقال لهم علي عليه السلام:

«فأنا نذيرٌ لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بينةٍ من ربكم، ولا سُلطان مُبينٍ معكُم...»[١٢١]

«فلم يزل يعظهم ويدعهم فلمّا لم ير عندهم انفياداً ـ وكان في أربعة عشر ألفاً ـ عبّأ الناس... ثمّ بسط لهم علي الأمان ودعاهم إلى الطاعة»[١٢٢] فرجعت طائفة منهم متفرقين إلى الكوفة والبلاد، وخرجت طائفة منهم إلى علي فاقاموا معه، واعتزلوا بعض الأمراء منهم حتى بقى ابن وهب الراسبي وزيد بن حصين وعبداللّه بن شجرة ونفر آخر في ألف وثمانمائة أو اربعة آلاف من الخيل والرجّالة. وقال علي لأصحابه: «كُفّوا عنهم حتّى يبدؤكم»[١٢٣] «وتنادي الحرورية: الرواح إلى الجّنة معاشر المخبتين، فشدّوا على أصحاب علي شدّة واحدة؛ ونهض علي إليهم فما لبثوا أن أهمدوا في ساعة... ولم يقتل من أصحاب علي إلا عشرة نفر أو أقل»[١٢٤] لأنّه قال لمّا عزم على حربهم، وقيل له: إن القوم عبروا جسر النهروان:

«مصارعُهم دون النُّطفةِ؛ واللّه لا يُفلتُ منهم عشرةٌ، ولا يهلكُ منكُم عشرةٌ»[١٢٥].

ولمّا قتل الخوارج فقيل له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم بأجمعهم، قال عليه السلام: «كلّا واللّه، إنّهم نطفٌ في أصلاب الرِّجال، وقرارات النِّساء، كُلّما نجم منهم قرنٌ قطعٌ حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلّابين!»[١٢٦].

وقد مرّ بالقتلى فقال عليه السلام: «بُؤساً لكم، لقد ضرَّكم من غرَّكم» فقيل له: من غرَّهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: «الشّيطانُ المُضلُّ والأنفس الأمارةُ بالسوء، غرتهم بالأماني، وفسحت لهم بالمعاصي، ووعدتهم الإظهار، فاقتحمت بهم النّار»[١٢٧].

«وكان مقتل أهل النهروان لتسع خلون من صفر سنة ثمان وثلاثين»[١٢٨]

أمرُ علي عليه السّلام بعد النّهروان

«وأمر علي عليه السلام النّاس بالرحيل من النهروان فقال لهم: إنّ اللّه قد أعزَّكم وأذهب ما كنتم تخافون عنكم؛ فامضوا من وجهكم هذا إلى الشّام. فقال الأشعث بن قيس: يا أمير المؤمنين نفدت سهامنا وكلّت سيوفنا ونصلت رماحنا؛ فلو أتينا مصرنا حتى نريح ونستعدّ ثمّ نسير إلى عدونا. فركن النّاس إلى ذلك...

وسار علي حتّى أتى المدائن، ثمّ مضى حتّى نزل النخيلة، وجعل أصحابه يدخلون الكوفة حتى بقى في أقلّ من ثلاثمائة، فلمّا رأى ذلك دخل الكوفة و قد بطل عليه ما دبرّ من إتيان الشام قاصداً إليها من النهروان، فخطب النّاس»[١٢٩] ونصحهم مرّة وعاتبهم ووبخهم مرّةً أخرى، فتركهم أيّاماً حتّى إذا يئس منهم خطبهم فحمد اللّه وأثنى عليه وصلّى على نبيّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم، ثم قال:

أُفٍ لكم! لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدُّنيا من الآخرة عوضاً؟ وبالذلّ من العزّ خلفاً؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عدوّكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرةٍ ومن الذهول في سكرةٍ! يرتج عليكم حواري فتعمهون، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون.

ما أنتمُ لي بثقةٍ سجيس اللّيالي، وما أنتم بركنٍ يُمال بكم، ولا زوافر عزّ يفتقرُ إليكم. ما أنتم إلّا كإبل ضلّ رُعاتها، فكلما جمعت من جانبٍ انتشرت من آخر. لبئس، لعمر اللّهِ، سُعرُ نارِ الحـربِ أنتم! تكـادون ولا تكيدون، وتنتقصُ أطـرافكم فلا تمتعضون؛ لا ينام عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون، غلب واللّه المتخاذلون!

وأيمُ اللّه إنّي لأظنُّ بكم أن لو حمس الوغى واستحرَّ الموتُ، قد أنفرجتم عن ابن أبي طالبٍ أنفراج الرأس. واللّه إنّ امرأً يُمكّنُ عدوهُ من نفسه يعرقُ لحمهُ، ويهشم عظمه، ويفري جلده، لعظيمٌ عجزه، ضعيفٌ ما ضمت عليه جوانح صدره. أنت فكن ذاك إن شئت؛ فأمّـا أنـا فواللّه دون أن أعطي ذلك ضربٌ بالمشـرفيّة تطير منه فراش الهام، وتطيح السّواعد والأقدامُ، ويفعلُ اللّه بعد ذلك ما يشاءُ[١٣٠].

«قالوا: وخطبهم بعد ذلك خطباً كثيرة، وناجاهم وناداهم فلـم يربعوا إلى دعوته ولا التفتوا إلى شيءٍ من قوله »[١٣١]

أمر مصر ومقتل محمد بن أبي بكر

«لّما بويع علي دعا قيس بن سعد الأنصاري فولّاه المغرب، فشخص إلى مصو ومعه أهل بيته حتّى دخلها فقرأ على أهلها كتـاباً من علي إليهم... فقام الناس فبايعوا عليّاً واستقاموا لقيس... وسار علي إلى الجمل وقيس بمصر، وصـار من البصرة إلى الكـوفـة وهـو بمكـانـه، فكـان أثقـل خلق اللّه على معاوية»[١٣٢] فدسّ عليه معاوية وتظاهر بمبايعة قيس إيّاه. بلغ الخبر عليّاً عليه السلام فعزله «وولى محمّد بن أبي بكر مصر؛ فلمّا ورد محمّد مصر غضب قيس وقال: واللّه لا أقيم معك طرفة عين، وانصرف إلى المدينة... ثمّ إنّ قيس بن سعد خرج وسهل بن حنيف جميعاً قدما على علي بالكوفة؛ فخبره الخبر وصدّقه [علي] وشهد معه صفين وشهدها سهل ايضاً.

ولّما قدم محمد بن أبي بكر ـ رضى اللّه تعالى عنهما ـ [مصر] قرأ عهده على أهلها»[١٣٣]:

«... وأعلم يامحمد بن أبي بكر، أنّي قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر، فأنت محقوقٌ أن تخالف على نفسك، وأن تنـافـح عن دينك ولو لم يكن لك إلّا ساعةٌ من الدهر، ولا تسخطِ اللّه برضى أحد من خلقه، فإنّ في اللّه خلفاً من غيره، وليس من اللّه خلفٌ في غيره »[١٣٤]

«وخرج معاوية بن خديج الكندي ثمّ السكوني فدعا إلى الطلب بدم عثمان، وذلك إن معاوية دس إليه في ذلك وكاتبه فيما يقال وأرغبه، فأجاب إبن خديج بشرٌ كثير، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ عليّاً فساد أمره وانتشاره.

وكـان علي قد ولّى قيس بن سعـد ـ بعد أمر النهروان ـ آذربيجان وولّى الأشتر الجزيرة فكان مقامه بنصيبين، فقال: ما لمصر إلّا أحد هذين الرجلين، فكتب إلى مالك الأشتر[١٣٥]... وأخبره بأمر ابن أبي بكر، وشرحه له، وأمره أن يستخلف على عمله بعض ثقاته وتقدم عليه، ففعل فولّاه مصر »[١٣٦]

«قالوا: لما ورد على علي خبر الأشتر؛ كتب إلى محمّد بن ابي بكر، وقد كان وجد من تولية الأشتر مكانه»[١٣٧]:

«أمّـا بعـدُ، فقـد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك، وإنّي لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد، ولا ازدياداً لك في الجـدِّ؛ولو نزعتُ ما تحت يدك من سُلطانك، لوليتُكَ ما هُوَ أيسر عليك مؤونةً، وأعجبُ إليك ولايةً.

إنَّ الرَّجلَ الّذي كنتُ وليتهُ أمر مصر كان رجلًا لنا ناصحاً، وعـلى عدونا شديداً ناقمًا؛ فرحمه اللّه! فلقد استكمل أيّامهُ، ولاقى حمامهُ، ونحن عنه راضون، أولاه اللّهُ رضوانه، وضاعف الثـواب له، فأصحـر لعـدوِّك، وامض على بصـيرتك، وشمرِّ لحربِ من حاربك، وادعُ إلى سبيل ربِّك، وأكثر الإستعانة باللّه يكفك ما أهَّمك، ويعنكَ على ما ينزلُ بكَ، إن شاء اللّه»[١٣٨].

«قالوا: ولما انصرف الحكمان وتفرقا وبويع معاوية بالخلافة، قوي أمره واستعلى شأنه، واختلف أهل العراق على علي؛ فلم يكن لمعاوية همة إلا مصر، وقد كان لأهلها هائباً، لقربهم منه وشدتهم على من كان يرى رأيه. فدعا عمرو بن العاص فولّاه إيّاها على ما كانا افترقا عليه... فلمّا أراد [عمرو بن العاص] الشخوص إلى مصر تقدم إليه معاوية في محاربة محمد بن ابي بكر. وكتب ابن أبي بكر إلى علي؛ يعلمه ولاية عمرو بن العاص مصـر من قبل معاوية، ويقول له: إنّه توجه في جيش لجب، وبمن قبلي من الفشل والوهن مالا انتفاع بهم معه، فإن كانت لك في مصر حاجة فأمدّني بالأموال والرجال...

وخطب علي أهل الكوفة ودعاهم إلى إغاثة محمد بن أبي بكر ومن معه من أهل مصر، فتقاعدوا عنه، ثمّ انتدب منهم

جُنيد أنفذهم إلى مصر، مع كعب بن مالك الهمداني؛ فلم يبلغوا حتّى أتى عليّاً مقتل محمد بن أبي بكر، فردّهم من بعض الطريق، وخطب فقال»[١٣٩]:

«مُنيتُ بمن لا يطيعُ إذا أمرتُ ولا يجيبُ إذا دعوتُ، لا أباً لكم! ما تنظرون بنصركم ربّكم؟ أما دينٌ يجمعكم، ولا حمية تحمشكم! أقومُ فيكم مُستصرخاً وأناديكم متغوِّثاً؛ فلا تسمعونَ لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتّى تكشَّف الأمور عن عواقب المساءة؛ فما يدركُ بكم ثارٌ، ولا يبلغُ بكم مرامٌ. دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتُم جرجرة الجمل الأسِر، وتثاقلتم تثاقُلَ النِّضو الأدبر، ثمَّ خرج إليَّ منكم جُنيدٌ متذائبٌ ضَعيفٌ، (كأنّما يُساقون إلى الموتِ وهم ينظرونَ)[١٤٠]!»[١٤١].

وكتب علي إلى عبدالله بن عباس بمقتل محمد بن ابي بكر[١٤٢].

«وأتت معاوية عيونه بشخوص الأشتر والياً على مصر، فبعث إلى رأس أهل الخراج بالقلزم فقال له: إنّ الأشتر قادم عليك؛ فإن أنت لطفت ـ لكفايتي إيّاه ـ لم آخذ منك خراجاً ما بقيت، فاحتل له بما قدرت عليه. فخرج الأشتر حتّى إذا أتى القلزم ـ وكان شخوصه من العراق في البحر ـ استقبله الرجل فأنزله وأكرمه... فأتاه بشربة من العسل قد جعل فيها سمّاً، فلمّا شربها قتلته من يومه أو من غده.

وبلغت معاوية وفاته فقال: كانت لعلي يدان ـ يعني قيس بن سعد والأشتر ـ فقد قطعتُ إحداهُما. وجعل يقول: إنّ لله لجنداً من عسل»[١٤٣].

وقد جاء نعي الأشتر رحمه الله إلى أمير المؤمنين عليه السَّلام فقال:

«مالكٌ وما مالكٌ! والله لو كان جبلاً لكان فنداً، ولو كان حجراً لكان صَلْداً، لا يلتقيه الحافُر، ولا يوفي عليه الطَّائرُ»[١٤٤].

غاراتٌ على العراق بأمر معاوية

اضطرب حينئذ أمر علي عليه السَّلام؛ ما كانوا يسمع أمره ويطيعه أهل العراق للقيام على العدو، أو عود إلى المرب بصفّين، أو قيام آخر، عصوا وخذلوا الإمام من جانب؛ وشجّع معاوية وتنمّر من قتل حمد بن ابي بكر ومالك الأشتر وحكم الحكمين وخذلان العراقيّين عليّاً عليه السَّلام، من جانب آخر، ولما ظهر على مصر قوي أمره وكثرت أمواله، وازداد اصحاب علي عليه السلام تفرّقاً عليه وكراهيّة للقتال؛ فحدثت بعدئذ حوادث نشير إليها إجمالاً:

ـ كان الخريّت بن راشد السامي مع علي بن أبي طالب في ثلاثمائة من بني ناجية،... فلما حكم الحكمان ركن إلى الخوارج وعصى أمر علي، ثمّ أتى قومه وسار من تحت ليلته من الكوفة ومعه قومه وتوجّه نحو كسكر... وقد وجّه علي زياد بن خصفة وعبدالله بن وال التيمي في طلبهم نحو البصرة في كثف... فأتبعهم زياد ولحقهم زياد بالمرار فاقتتلوا، ثمّ أفلت خرّيت وقومه، وكتب علي إلى معقل بن قيس، فاقتتلا، وقَتَل النعمانُ بن صهبان الخرّيتَ، وقُتِلَ اكثر ذلك الجمع وهرب فُلّهم يميناً وشمالاً[١٤٥].

ـ أشخص معاوية، بعد مقتل محمّد بن أبي بكر، عبدالله بن عامر الحضرمي إلى البصرة لدعوة اهلها في الطلب بدم عثمان. بلغ ذلك عليّاً وأرسل علي جارية بن قدامة إليهم؛ فاقتتلوا ساعةً ثمّ هزموهم واضطروهم إلى دارٍ فحصروهم ذلك اليوم إلى العشيّ، فحرّق جارية الدّار عليهم، فهلك ابن الحضرمي ومن معه في الدّار[١٤٦].

ـ ثمّ جعل معاوية يغير على العراق، منها:

دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفهري وقال له: سِر حتّى تمرّ بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه... فأقبل الضحّاك يأخذ الأموال ويقتل من لقى من الأعراب حتّى مرّ بالثّعلبيّة، فأغار خيله على الحاجّ فأخذ أمتعتهم، ثمّ أقبل فلقى عمرو بن عميس بن مسعودٍ... فقتله في طريق الحاجّ وقتل معه ناساً من أصحابه.

قال أبو روق: فحدّثني أبي أنّه سمع عليّاً عليه السلام وقد خرج إلى النّاس، وهو يقول على المنبر: «يا أهل الكوفة اخرجوا إلى العبدالصالح عمرو بن عميسٍ وإلى جيوشٍ لكم قد أصيب منها طرف؛ أخرجوا فقاتلوا عدّوكم وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين».

قال: فردّوا عليه ردّاً ضعيفاً ورأى منهم عجزاً وفشلاً فقال»[١٤٧]:

«أيُّها النّاسُ، المجتمعةُ أبدانهم، المختلفة أهوائهم! كلامُكم يوهي الصُّمَّ الصِّلابَ، وفعلكم يُطمعُ فيكم الأعداء! تقولون في المجالسِ: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتُم حيدي حيادِ! ما عزَّت دعوةُ من دعاكم، ولا استراح قلبُ من قاساكم. أعاليلُ بأضاليل، وسألتموني التطويل، دفاع ذي الدين المطُولِ. لا يمنع الضَّيم الذَّليلُ! ولا يُدرك الحقُّ إلّا بالجدِّ!..»[١٤٨].

استمّرت هذه الغارات من قبل عمّال معاوية وبأمره وقصّتها طويلة، نوردها هنا إجمالاً وإشارة حذراً عن الإطناب والإسهاب:

ـ غارَ سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار وقتل أشرس بن حسّان البكري عامل علي ثم انصرف، وأتى عليّاً الخبر «وكان عليلاً لايمكنه الخطبة، فكتب كتاباً قرىء على الناس... وكانت نسخة الكتاب:[١٤٩]

«أمّـا بعـد، فإنَّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنّةِ، فتحهُ اللّهُ لخاصةِ أوليائه، وهو لباسُ التقوى، ودرعُ اللّهِ الحصينةُ، وجُنَّتُهُ الوثيقة...»[١٥٠].

ثمّ إنّ عليّاً أتبعه سعيد بن قيس الهمداني، فبلغ صفّين ثمّ انصرف.

ـ غارَ النعمان بن بشير الأنصاري على عين التمر: قاتله مالـك بن كعب عامـل علي على عين التمر حتى رفعه عن القرية، فانهزموا حتى لحقوا بمعاويـة.

وقد كان على حين أتاه خبر النعمان بالكوفة؛ خطب الناس فقال:

«كم أُداريكُم كما تُدارى البكارُ العمدةُ، والثِّيابُ المتداعيةُ! كلما حيصت من جانبٍ تهتكت من آخر. كُلَّما أطلَّ عليكم منسرٌ من منـاسر أهل الشَّام أغلَق كُلُّ رجلٍ منكم بابه، وانجحر انجحار الضبَّةِ في جُحرها، والضَّبع في وجارها...»[١٥١].

ـ غارة عبـدالله بن مسعـدة الفـزاري إلى تيماء: فندب علي(ع) المسيّب بن نجبة الفزاريّ في طلبه، فالتقى هو وابن مسعدة فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ أصابت ابن مسعدة جراحات... فلجأ إلى حائط حول حصن تيماء... فلمّا جنَّ عليه اللّيل خلّى [عبدالرحمان بن أسماء الفزاري] سبيلهم فمضوا حتّى لحقوا بمعاوية[١٥٢].

ـ مسير بسر بن أبي أرطاة وغارته على المسلمين وأهل الذمّة وأخذه الأموال ورجوعه إلى الشّام: «بعث معاوية بسر بن أبي أرطـأة... فمرّ بالمدينة فأخاف أهلها وأذعرهم، ثم إلى مكّة، والطائف ، ومضى بسر حتى إذا شارف اليمن؛ هرب عبيدالله وسعيد... فلحقـا بعـلي... فلمّا قدمهـا بسر قتل عبدالله بن عبـدالمدان الحارثي وابنه مالك بن عبدالله، وقتل جماعة من شيعة علي.

وسار جارية بن قدامة السعدي حتى أتى اليمن... وطلب بسراً فهرب منه ـ فأتبعه إلى مكّة، وظفر بقوم من أصحابه فقتلهم...»[١٥٣].

ـ غارة الحرث بن نمر التنوخي على أهل الجزيرة.

ـ غارة عبدالرحمان بن قباث بن أشيم الكناني على الجزيرة.

عنـدمـاكـان يسمع خبرها أمير المؤمنين كان يدعو أهل الكوفة إلى إغاثة اخوانهم، ولكن لم يجيبوهم، وأخيراً قال لهم:

«أحمـدُ اللّه على ما قضى من أمر، وقدَّر من فعلٍ، وعلى ابتلائي بكم أيَّتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوتُ لم تجب. إنْ أمهلتم خضتم، وإن حوربتم خُرتم. وإن اجتمـع النّاسُ على إمامٍ طعنتم، وإن أُجئتم إلى مُشاقةٍ نكصتم. لا أبا لغيركم! ما تنتظرونَ بنصركم ربَّكم والجهاد على حَقِّكُمْ؟ الموتَ أو الذُّلَّ لكم!

فواللّه لئن جاء يومي ـ وليأتيني ـ ليُفرقنَّ بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قالٍ، وبكم غير كثير. للّه أنتُم!

أمـا دينٌ يجمعُكم، ولا حميَّة تشحذكم!؟ أوليس عجباً أنَّ مُعاوية يدعو الجُفاة الطَّغام فيتبعونهُ على غير معونةٍ ولا عطاءٍ، وأنا أدعوكم ـ وأنتم تريكةُ الإسلام وبقيّةُ النَّاسِ ـ إلى المعونةِ أو طائفةٍ من العطاءِ فتفرقون عنّي وتختلفونَ عليّ؟

إنَّه لا يخرج إليكم من أمري رضىً فترضونه، ولا سخطٌ فتجتمعون عليه؛ وإنَّ أحبَّ ما أنا لاقٍ إليَّ الموتُ! قد دارستكم الكتاب، وفاتحتكم الحِجاجَ، وعرَّفتم ما أنكرتم، وسوَّغتُكم ما مججتُم؛ لو كان الأعمى يلحظُ، أو النَّـائم يستيقظُ! وأقـرب بقومٍ من الجهل باللّهِ قائدهم معاويةُ ومؤدِّبُهم ابن النابغةِ![١٥٤].

روي عن نوف البكـالي قال: خطبنـا بهذه الخـطبة أمير المؤمنـين علي عليه السـلام بالكوفة، وهو قائم على حجارة، نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي وعليه مدرعةٌ من صُوف

وحمائل سيفه ليفٌ، وفي رجليه نعلان من ليفٍ، وكأنّ جبينه ثَفِنةُ بعير. فقال عليه السلام:

«الحمدُ للّه الّذي إليه مصائرُ الخلقِ، وعواقبُ الأمرِ...

ثمّ نادى بأعلى صوته:

الجهاد الجهاد عباد اللّه! ألا وإنّي مُعسكرٌ في يومي هذا؛ فمن أراد الرَّواح إلى اللّهِ فليخرج!»

قال نوفٌ: وعقد للحسين عليه السّلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه اللّه في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلافٍ، ولغيرهم على أعدادٍ أُخر، وهو يريد الرجعة إلى صفّين، فما دارت الجمعة حتّى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه اللّه، فتراجعت العساكر، فكنّا كأغنام فقدت راعيها، تختطفها الذئاب من كلّ مكان![١٥٥].

أمر ابن ملجم ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)

المدائني، عن مسلمة بن محارب، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حجّ ناس من الخوارج سنة تسع وثلاثين، وقد اختلف عامل علي وأصحاب معاوية، فأصطلح النّاس على شيبة بن عثمان، فلمّا انقضى الموسم أقام الخوارج مجاورين فقالوا: كان هذا البيت معظّمًا في الجاهلية، جليل الشأن في الإسلام، وقد انتهك هؤلاء حرمته، فلو أن قوماً شروا أنفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللّذين قد أفسدوا في الأرض، واستحلّا حرمة هذا البيت استرحنا واستراحت الأمة، واختار الناس لأنفسهم إماماً، فقال عبدالرحمان بن ملجم: أنا أكفيكم عليّاً؛ وقال الحجاج بن عبداللّه الصريميّ، وهو البركة،: أنا أقتل معاوية؛ وقال داذويه مولى بني حارثة بن كعب بن العنبر، واسمه عمرو بن بكر،: واللّه ما عمرو بن العاص بدونهما فأنا له. فتعاقدوا على ذلك، ثُمّ إنّهم اعتمدوا عمرة رجب.

فقدم ابن ملجم الكوفة وجعل يكتم أمره؛ فتزوج قطام بنت علقمة من تيم الرباب ـ وكان علي قتل أخاها ـ فأخبرها بأمره، وكان أقام عندها ثلاث ليال، فقالت له في الليلة الثالثة: لشدّ ما أحببت لزوم أهلك وبيتك وأضربت عن الأمر الذي قدمت له! فقال: إنّ لي وقتاً واعدت عليه أصحابي ولن أجاوزه. ثمّ إنه قعد لعلي فقتله؛ ضربه على رأسه، وضرب ابن عم له عضادة الباب، فقال علي حين وقع به السيف: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ[١٥٦].

قالوا: لم يزل ابن ملجم تلك الليلة عند الأشعث بن قيس يناجيه حتّى قال له الأشعث: قم فقد فضحك الصبح. وسمع ذلك من قوله حجر بن عدي الكندي، فلما قتل علي قال حجر: يا أعور أنت قتلته[١٥٧].

المدائني عن يعقوب بن داوود الثقفي، عن الحسن بن بزيع: إنّ عليّاً خرج في الليلة التي ضرب في صبيحتها في السحر وهو يقول:

أُشدد حيازيمك للموت فإنّ الموت لاقيك
ولاتجزع من الموت إذا حلّ بواديك

فلمّا ضربه ابن ملجم قال: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ. وكان آخر ما تكلم به: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ، وَمَن يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾[١٥٨]»[١٥٩].

قال عليه السّلام في سحرة اليوم الّذي ضرب فيه:

«ملكتني عيني وأنا جالسٌ، فسنح لي رَسولُ اللّه، صلّى اللّه عليه وآله وسلم، فقلتُ: يا رسول اللّه ماذا لقيتُ من أُمَّتِكَ من الأَوَدِ واللَّدَدِ؟ فقال: ٱدْعُ عليهم. فَقلتُ: أبدلني اللّهُ بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شرّاً لهم مِنّي»[١٦٠].

ووصّى عليه السلام الحسن والحسين عليهما السّلام.

«أُوصيكُما بتقوى اللّه، وألّا تبغيا الدُّنيا وإنْ بغتكما، ولا تأسفا على شيءٍ منها زوى عنكما. وقولا بالحق وٱعملا للاخرة[١٦١] وكونا للظّالم خصمًا وللمَظْلُوم عوناً.

أُوصيكُما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى اللّه ونظم أمركم، وصلاح ذاتِ بينكُم، فإنّي سمعتُ جدَّكما، صلّى اللّه عليه وآله وسلم يقولُ: «صلاحُ ذاتِ البين أفضلُ من عامَّةِ الصَّلاة والصِّيام».

ٱللّهَ اللّهَ في الأيتامِ، فلا تُغبُّوا أفواهَهُم، ولا يَضيعوا بحضرَتِكُم.

واللّهَ اللّه في جيرانكُمْ، فإنَّهُ وصيَّةُ نبيِّكُم. مَازال يُوصي بهم حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ.

واللّهَ اللّه في القُرآنِ، لا يَسبِقُكُم بالعَمَل به غيركم.

واللّه اللّه في الصَّلاة فإنّها عمودُ دينكم.

واللّهَ اللّه في بَيت رَبِّكُم، لا تُخلُّوهُ ما بقيتُم، فإنَّه إنْ تُرك لم

تُناظروُا.

واللّهَ اللّهَ في الجهادِ بأموالكُم وأنفسكُم وألسنتكُم في سَبيل اللّه.

وَعليكُم بالتَّواصُلِ والتَّباذُلِ، وإيَّاكُم والتَّدابرُ والتَّقاطُع. لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر فيولى عليكم شراركم، ثُمَّ تدعون فلا يستجاب لكم.

ثمّ قال:

يا بني عبدالمُطَّلب، لا أُلفينّكُم تَخُوضونَ دِماءَ المُسلمينَ خَوضاً، تقولونَ: قُتِلَ أميرُ المُؤمنين. ألا لا تَقْتُلُنَّ بي إلّا قَاتِلي!

أنظروا إذا أنا متُّ من ضربته هذه، فاضربوه ضَربةً بضربةٍ، ولا تُمثِّلوا بالرَّجُل، فإنّي سمعتُ رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، يقولُ: «إيَّاكُم والمُثلةَ ولو بالكلب العقور»[١٦٢].

قالوا: ومكث علي يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين.

فلمّا بلغت عائشة خبره أنشدت قول البارقي:

فألقت عصاها واستقرت بها النوى
كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وقال أبو الأسود الدؤلي:

ألا أبلغ معاوية بن حرب
فلا قرّت عيون الشامتينا
قتلتم خير من ركب المطايا
واكرمهم ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها
ومن قرء المثاني والمئينا
وقد علمت قريش حيث كانت
بأنّك خيرهم حسباً ودينا[١٦٣]

المصادر والهوامش:

نرمز إلى: نهج = نهج البلاغة، ط = خطبة، ك = كلام، ر = رسالة أو كتاب، ح = حكمة وهي كلم القصار من النهج، وص = وصية، ق = قول. وعدد الخطب وغيره من نهج البلاغة مصحّح ومفهرس عن الدكتور صبحي الصالح.

١ـ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ١٤ ـ ٢٠ ملّخصاً.

٢ـ ويدل على هذا القول أخبار وردت في مصادر كثيرة، فرواه أحمد بن حنبل في مسند عمار من كتاب المسند: ج٤ ص٢٦٣، ورواه أيضاً النسائي في الحديث ١٤٩ من كتاب الخصائص، ص١٢٩.

٣ـ البوغاء: الغبار ودقاق التراب، أو ما ثار منها.

٤ـ البلاذري، انساب الأشراف، ج٢، ص٨٩ ـ ٩٠.

٥ـ شريف الرضي، خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ص٤.

٦ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص٩٠.

٧ـ نهج، ط ١٩٢ (القاصعة).

٨ ـ أنساب الأشراب، ج٢، ص٩١، حديث٦.

٩ـ نهج، ط ١٩٢.

١٠ـ نهج، ط ١٣١.

١١ـ نهج، ط ٣٧.

١٢ـ نهج، ط ٧١.

١٣ـ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ص ٤٤.

١٤ـ البقرة/ ٢٠٧.

١٥ـ تذكرة الخواص، ص ٤١.

١٦ـ نهج، ط ٢٣٦، قال السيد الشريف ذيل الخطبة: «قوله عليه السلام: «فأطأ ذكره»، من الكلام الّذي رمى به إلى غايتي الإيجاز والفصاحة. أراد أنّي كنت أُعطي خبره ـ صلّى اللّه عليه وآله ـ من بدء خروجي إلى أن انتهيتُ إلى هذا الموضع، فكنى عن ذلك بهذه الكناية العجيبة».

١٧ـ سيرة النبي، ج٢، ص١٢٣ ـ ١٢٦.

١٨ـ بلاذري، أنساب الأشراف، ج٢، ص٩١ ـ ٩٢، حديث ٨.

١٩ـ نهج، ط ١٠.

٢٠ـ نهج، ط ٣٣.

٢١ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٩٣، حديث١١.

٢٢ـ البقرة/ ٢٥١.

٢٣ـ الشيخ المفيد، الإرشاد، ص٥٠ ـ ٥٦ ملخّصاً.

٢٤ـ الدكتور محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پيامبر اسلام، ص ٣٩٥.

٢٥ـ نفس المصدر، ص٥٦٧.

٢٦ـ الارشاد، ص٨٠ ـ ٨١.

٢٧ـ تاريخ پيامبر اسلام، ص ٦١٧.

٢٨ـ تذكرة الخواص، ص ٢٧.

٢٩ـ نهج، ط ٥٦.

٣٠ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص١٠٨، حديث ٤٦. ونقل البلاذري هذ الحديث باربع طرق أخرى.

٣١ـ تذكرة الخواص، ص٣٥. وللسبط ابن الجوزي في هذا الحديث بحث دقيق وقول طويل وذكره بأسناد وطرق أخرى معتبرة.
٣٢ـ تذكرة الخواص، ص ٣٩.
٣٣ـ نهج، ط ١٩٧.
٣٤ـ البقرة / ٤٣.
٣٥ـ البقرة / ٢٧٤.
٣٦ـ آل عمران / ٦١.
٣٧ـ المائدة / ٥٥.
٣٨ـ التوبة / ١١٩.
٣٩ـ هود / ١٧.
٤٠ـ مريم / ٩٦.
٤١ـ الأحزاب / ٢٣.
٤٢ـ الأحزاب / ٣٣.
٤٣ـ الصافات / ٢٤.
٤٤ـ الجاثية / ٢١.
٤٥ـ الواقعة / ١٠.
٤٦ـ المجادلة / ١٢.
٤٧ـ البيّنة / ٧.
٤٨ـ تذكرة الخواص، ص ٢٧.
٤٩ـ تذكرة الخواص، ملخّصاً من ص ٢٧ إلى ص٥٦.
٥٠ـ نهج، ط ١٦٢.
٥١ـ نهج، ط ٦٧.
٥٢ـ نهج، ط ٥.
٥٣ـ نهج، ط ٦٢.
٥٤ـ نهج، ط ١٣٤.
٥٥ـ نهج، ط ١٦٤.
٥٦ـ نهج، ط ٣ (شقشقية).
٥٧ـ نهج، ط ٢١٧.
٥٨ـ عمر بن الخطّاب.
٥٩ـ أمر الخلافة.
٦٠ـ نهج، ط ٣.
٦١ـ نهج، ك ١٣٩.
٦٢ـ نهج، ط ١٧٢.
٦٣ـ نهج، ر ٦٢.
٦٤ـ نهج، ط ٣.
٦٥ـ نهج، ط ٣٠.
٦٦ـ نهج، ط ٩٢.
٦٧ـ نهج، ط ٣.
٦٨ـ نهج، ط ٢٢٩.
٦٩ـ نهج، ط ٣.
٧٠ـ نهج، ط ١٦.
٧١ـ نهج، ط ١٥.
٧٢ـ نهج، ح ٢٠٢.
٧٣ـ نهج، ط ٢٠٥.
٧٤ـ الطبري، تاريخ الرسل، ج٤، ٤٥٨ ـ ٤٥٩.
٧٥ـ نهج، ط ١٦٩.
٧٦ـ نهج، ط ١٧٢.
٧٧ـ الطبري، ج٤، ص ٤٥٥.
٧٨ـ نهج، ط ٦.
٧٩ـ ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٤، ص ٣١٤.
٨٠ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٤.
٨١ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٨.
٨٢ ـ نهج، ط ١٣.
٨٣ ـ البلاذري، أنساب الأشراف، ج٢، ص ٢٧١، حديث٣٥١.
٨٤ ـ نفس المصدر، ص ٢٧٣، حديث ٣٥٧.
٨٥ ـ الطبري، تاريخ الرسل، ج٤، ص٥٤٧ ـ ٥٤٨.
٨٦ ـ نهج، ر ٧٥.
٨٧ ـ نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، ص٢٧ ـ ٢٨.
٨٨ ـ نهج، ر ٦. ما جاء بين المعقوفين من كتاب «وقعة صفين» (ص ٢٩٠)؛ عدا ما جاء بين المعقوفين، يوجد فرق يسير بين كلمات هذا الكتاب في نهج البلاغة وفي وقعة صفين.
٨٩ـ نهج، ر ٨.
٩٠ـ نهج، ط ٢٦.
٩١ـ نهج، ط ٥٤.
٩٢ـ وقعة صفّين، ص ٩٢.
٩٣ـ نهج، ط ٤٨.
٩٤ـ وقعة صفّين، ص ١٥٧.
٩٥ـ نهج، ط ٥١.
٩٦ـ وقعة صفّين، ص ١٦٧.
٩٧ـ نفس المصدر، ص ١٩٣.
٩٨ـ وقعة صفّين، ص ٢٠٣.
٩٩ـ نهج، و ص ١٤ (قسم الكتب).
١٠٠ـ وقعة صفّين، ص ٢٢٥.
١٠١ـ وقعة صفّين، ص ٣٦٩.
١٠٢ـ محمد(ص) / ٣٥.
١٠٣ـ نهج، ط ٦٦.

١٠٤ـ وقعة صفّين، ص ٤٧٥.
١٠٥ـ نفس المصدر، ص ٤٨١.
١٠٦ـ نفس المصدر، ص ٤٨٢.
١٠٧ـ نهج، ك٢٠٨.
١٠٨ـ وقعة صفّين، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.
١٠٩ـ نفس المصدر، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٤.
١١٠ـ نفس المصدر، ص ٥٠٨.
١١١ـ نفس المصدر، ص ٥١٢ ـ ٥١٤.
١١٢ـ نهج، ر ٥٨.
١١٣ـ نهج، و ص ٧٧ (قسم الكتب).
١١٤ـ نهج، ك٤٠.
١١٥ـ نهج، ط ٣٥.
١١٦ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٥٩، حديث ٤٣١.
١١٧ـ نفس المصدر، ص ٣٦٧، حديث ٤٣٧.
١١٨ـ الأنعام/ ٥٦.
١١٩ـ نهج، ك٥٨.
١٢٠ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.
١٢١ ـ نهج، ط ٣٦.
١٢٢ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٧١، حديث ٤٣٩.
١٢٣ـ نفس المصدر، ص ٣٧١.
١٢٤ـ نفس المصدر، ص ٣٧٣.
١٢٥ـ نهج، ق ٥٩ (باب الخطب).
١٢٦ـ نهج، ق ٦٠.
١٢٧ـ نهج، ج ٣٢٣ (باب الحكم، القسم الثالث).
١٢٨ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٧٥.
١٢٩ـ نفس المصدر، ص ٣٧٩، حديث ٤٥٠.
١٣٠ـ نهج، ط ٣٤.
١٣١ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٨٢، حديث ٤٥٣.
١٣٢ـ نفس المصدر، ج٢، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
١٣٣ـ نفس المصدر، ص ٣٩٢.
١٣٤ـ نهج، من كتاب ٢٧.
١٣٥ـ نهج، ر ٤٦.
١٣٦ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٥٨.
١٣٧ـ نفس المصدر، ص ٤٠٠، حديث ٤٦٣.
١٣٨ـ نهج، ر ٣٤.
١٣٩ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١، حديث ٤٦٤.
١٤٠ـ الأنفال / ٦.
١٤١ـ نهج، ط ٣٩.
١٤٢ـ نهج، ر ٣٥.
١٤٣ـ أنساب الأشراف، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٠.
١٤٤ـ نهج، ج٤٤٣.
١٤٥ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٤١١ ـ ٤١٥.
١٤٦ـ ابراهيم بن محمد الثقفي الكوفي، الغارات، ج٢، ص٣٧٣ ـ ٠٨
١٤٧ـ الغارات، ج٢، ص٤٢١ ـ ٤٢١.
١٤٨ـ نهج، ط ٢٩.
١٤٩ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٤٤٢.
١٥٠ـ نهج، ط ٢٧.
١٥١ـ نهج، ط ٦٩.
١٥٢ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص٤٤٩ ـ ٤٥٠.
١٥٣ـ نفس المصدر، ص ٤٥٧ ـ ٤٥٨.
١٥٤ـ نهج، ط ١٨٠.
١٥٥ـ نهج، ط ١٨٢.
١٥٦ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص٤٨٧ ـ ٤٨٨، حديث ٥١٩.
١٥٧ـ نفس المصدر، ص٤٩٣، حديث ٥٢٥.
١٥٨ـ الزّلزلة / ٧ و ٨.
١٥٩ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص٤٩٩، حديث ٥٤٣.
١٦٠ـ نهج، ق ٧٠ (من قسم الأول باب الخطب).
١٦١ـ كذا (الآخرة) في النسخ المخطوطة من النهج، وهذا هو الصح وفي النسخ المطبوعة: لِلأجرِ(؟!).
١٦٢ـ نهج، و ص ٤٧ (قسم الثاني، باب الكتب).
١٦٣ـ أنساب الأشراف، ج٢، ص ٤٩٦ ـ ٥٠٨.